

عمر المأساة في الأرض المحتلة

بقلم صبري حافظ

اوضاع وظروف خاطئة امتدت على الصعيدين القومي والعالمي الـسى سنوات عديدة . فهل استطاع الادب والفكر قبل المواجهة ان يسيطر اللثام عن هذه الـاوضاع وعن تلك الظروف؟! .. وهل كانت الكلمة في مستوى مسؤوليتها ام ان فقدان القارئ لثقته فيها ، لظروف تمتد لسنوات عديدة غاب خلالها فرسان الكلمة واستلم المفود المتسلقون والانتهازيون ولوطيو الكلمات ، اعجزها عن بلوغ الهدف؟ .. واذا قصرنا الرؤية على الكلمة في الفن وحدها ، فهل استطاع الفن ان يكشف وان يثير وان ينبه؟! .. هذه بعض التساؤلات عن دور الكلمة قبل النكسة ، اذا ما تناولناها بالتفصيل هنا فسوف ننصرف عن غرض الدراسة الرئيسي ، لا الى شيء مفيد ، ولكن الى جثث ميتة . فقد مضت هذه الفترة بما لها وما عليها .. ليس لنا ان لنقي النظر في اوراقها الا لنستخلص منها الدروس ونأخذ العبر .. واهم هذه العبر - كما قال الرئيس جمال عبد الناصر - هي ان ظروف ما قبل النكسة دفعت الكثيرين الى ان يصمتوا حين كان يجب ان يتكلموا .

من هذه النقطة ابدأ دراستي تلك عن صوت المأساة بعد ايسام حزيران الدامية ، احاول فيها ان استخلص ملامح الادب الذي كتب بعد النكسة واتجاهاته . فأول نظرة الى ظروف ما قبل النكسة تهب بنا ان نهتم بدور الكلمة وان نفسح المجال للفن ليرى ويستشرف ويتنبأ ويرود .. وقبل ان نرى ماذا قدم الادب خلال الشهور العشرين التي انقضت منذ النكسة حتى اليوم .. احب ان اشير الى هذا الهدوء الظاهري الذي يعيشه العرب والهزيمة تهب كاهلهم .. الـسى معنى الحياة باسلوب هادئ وكان لم يحدث شيء . تمتلئ الشوارع بالمتسكمين وتكتظ الحوانيت بالبضائع المحلية والمستوردة . وتتهدد دور السينما ، كرنات كبيسة ضخمة ، بتلغ الاف المشاهدين ثم تفرهم من جديد بعد ان يشاهدوا العري والعنف والتفاهة والتسطح. وتثر المقاهي بدوي الثرائر الثقافية واصوات الترد ورشقات المشروبات الساخنة .. لكن ترى .. هل يخفي هذا الهدوء الجنائزي الرهيب الذي نعيشه في لحظة انتظار طويلة مطوطة سمجة خلف قناعه الرمزي البارد شيئاً؟ هل تعني تلك الاضواء الوهاجة والشوارع المزدهجة والمقاهي الصاخبة وواجهات الخيالات المضيئة ان شيئاً مفايراً قد حدث؟ .. ان حياة باكملها قدتكشفت عن اكنوبة ضخمة؟ .. عن شعب قدرى متواكل لم يأخذ باسباب الحضارة الحديثة برغم بهرجة الشكل الخادمة؟ .. الحقيقة ان العرب برغم هذا الهدوء الظاهري الجنائزي يتجرعون حتى الثمالة في كل ثانية من الثواني التي مرت منذ حزيران حتى اليوم معنى هذه الجملة الصغيرة المتبدلة « البشر جميعهم فانون » . لانهم يعيشون في حضور الموت الدائم . الموت الحقيقي والموت المنوي . وعلى الفنان ان يستغل هذه اللحظة البريرة الحاسمة . وان يبدد في وجدان قارئه انه « خير من الموت ان .. » هذه المسافة المنقوطة البيضاء هي التي تتطلب ان يملأها الفنان بقدراته ورؤاه ، بريادته واستبصاره العميق .

لفن دور ريادي يتطلب من الفنان ان يقود الجماهير وان يكشف لهم الواقع وان يساعدهم على ان يكونوا اكثر فهما له واعمق ادراكا لقضاياها . لان الفن ، مثله مثل العلم ، وسيلة من وسائل المعرفة البشرية ، وان اختلفت ادواتها عن ادوات العلم . فالفن يعتمد على المعرفة الحسية بينما يعتمد العلم على المعرفة العقلية . وليس معنى

لا شك ان المأساة الدامية التي عاشتها الامة العربية بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ كان لها دور كبير في اضاءة الكثير من جوانب الحياة في مختلف البلدان العربية . لانها كانت قبضة كبيرة تضرب بعنف على الابواب الكسولة الغافية لتفتح القيعان المظلمة على نفسها ، بعد طول ألفة للتمتة والظلام ، عيونها على الحقيقة ، باهرة بشعة .. يؤدي وهجها العين والقلب معا . فقد تكشفت الهزيمة المريرة التي لحقت بالعرب جميعا ، عن مدى التخلف الحضاري الذي تعيشه بلادنا . وعن بشاعة الاختناقات الشديدة التي تعثرت فيها الخطوات قبل ان تكبو منكسرة في لحظة المواجهة . وعن ان الانسان الذي طلب اليه فجة ان يدافع عن شرف امته وعن ارضها لم يعد لهذه المواجهة من قبل فكربا وسياسيا بالصورة الكافية ، ولم يجمع بين قبضتيه ابعاد القضية التي دفع به فجة الى خط القتال من اجل الذود عنها . فقد ذهب الى ساحات القتال على الجبهات المتعددة وهو مثقل بمشاكل وأزمات لا تحصى .. ذهب وهو عارف ان موته قد يعرض وجود اسرته للموت دونما طلقة نار وللضياع . ومن ثم كان همه ان يلوذ بالنجاة عندما تلوح امامه ادنى احتمالات الخطر .. ذهب رازحا تحت وطأة علاقات غريبة على جوهر الانسان فكلمته هذه العلاقات والهموم بقيود لا مرئية عوقت انطلاقه في لحظات المواجهة المصيرية . ذهب وهو لا يعرف ان تخاذله للحظة ، وان ادنى هفوة منه ، قد تعرض الالاف من بني شعبه للجوء والتشرد والتزوج عن الارض وعن الوطن . ولا يستطيع حتى ان عرف ان يجد في نفسه الحافز ليضحي ويفتدي ويذود .

تكشفت الهزيمة المريرة عن كل هذا ، وتكشفت ايضا عن الخواء الرهيب الذي يعيق في سراديب الحياة العربية ، في كل سراديبها .. وعن الضياع الكامل للبقية الباقية من الوطن الفلسطيني السليب . ومعها اجزاء عزيزة وكبيرة من الارض المصرية المسيحية ومن المرتفعات السورية الحصينة . وعن مدى حاجتنا الماسة الى مراجعة شاملة وعلمية ودقيقة لشتى امور حياتنا .. مراجعة قاسية مهظلة لانها تتم في نفس الوقت الذي نللم فيه النفس ونستجمع القوى ، لمواجهة جديدة . فمن الوهلة الالولى رفض العرب الهزيمة وكأنها شيء لا يصدق . فمن تراه يصدق ان كل هذه الامكانيات العربية الكبيرة تندحر امام دولة صغيرة من المهاجرين وشذاذ الافاق .. فالحقيقة ان العرب انهزموا لانهم لم يحاربوا .. وفي المواقع القليلة التي حارب فيها العرب اثبتت المعركة ان باستطاعتهم ان ينتصروا لو توفرت لهم الظروف العادلة .

(١) مقدمات .. ودلالات

وتكشفت قبل كل هذا وبعده عن ضحالة فهم الادب لطبيعة المشكلات والقضايا التي تهب كاهل الامة العربية . وعن فقدان الكلمة لدورها الكبير في الريادة والاستشراق والنبوة والمواجهة . وعن الظروف القاسية المريرة التي دفعت الفن الى الهرب من مسؤوليته الكبرى ، ودفعت الفنان الى ان يندس وسط جوقة المصنفين او يظل وحده بعيدا عن الضوء يجتر همومه واحزانه دون ان يستطيع حتى الكشف عنها . فلم تكن الهزيمة نتيجة لاطياء الايام السابقة على المواجهة العسكرية ، او نتيجة لبعض ثغراتها . ولكنها كانت نتيجة

هذا ان الفن لا يقدم مدركات عقلية تصل في صلابتها الى مستوى الحقيقة العلمية . ولكنه يعني ان اسلوب الفن في الوصول الى هذه المعرفة العقلية هو الجزئيات الحسية والمعرفة الحديثة . لكل هذا يجب على الفن ان يكون اكثر جسارة في مواجهة القضايا واعمق نفاذا الى جوهرها . فالفنان يستحق تلك المكانة الرفيعة في قلوب القراء وفي نفوسهم لانه يساعدهم على الرؤية ، ويضع ايديهم على جوهر الامور . ولانه اكثر منهم كسفا وشجاعة ونبوة . فالفن ريادة، اكتشاف للبقاع المجهولة ، اجتياز للحاضر واستشراف للمستقبل . اصطحاب للقارئ في محاولة لاماطة اللثام عن مناطق مجهولة من المعرفة البشرية . . . لكن الملاحظة الاولى التي نحسها في الادب الذي كتب بعد ايام حزيران الدامية ، هي ان جسارة الفن في الكشف وفي المواجهة مختلفة عن جسارة الانسان العادي . . وان اكثر الاعمال الفنية شجاعة وتطرفا، تقف على مبعده خطوات عديدة للوراء من المكاشفات اليومية التي تدور على المقاهي وفي المكاتب وفي الشوارع وفي كل انحاء الحياة اليومية المألوفة . . .

وقد ادت هذه الحقيقة الى ظهور اتجاه نقدي يحاول ان يسقط رؤى الناقد على اعمال فنية لم تخطر تلك الرؤى في بال كاتبها بأي حال من الاحوال . وقد شهدت بنفسى امثلة عديدة لهذه الظاهرة النقدية في الندوات الادبية والاذاعية بالبرنامج الثاني لاذاعة القاهرة . والتي تؤكد غياب التعبير الفني العميق عن هموم اللحظة الحضارية التي تعيشها بلادنا . وتؤكد في الوقت نفسه ان هذا التعبير قد يأخذ مسارب ومسالك جانبية وملتوية اعتاد عليها النقد بصورة دفعته الى هذه الاسقاطات . وسأذكر هنا مثلا واحدا من هذه الامثلة العديدة التي شهدتها لهذه الظاهرة النقدية . . . ففي مطلع العام الماضي كنا - الدكتور لطيفة الزيات وعبد الله خيرت وانا - نناقش مجموعة عبد الله خيرت القصصية في برنامج (مع الناقد) بالبرنامج الشائني . واخذت الدكتورة لطيفة الزيات تحلل احدى قصص المجموعة عن انها مكتوبة عن النكسة ، وعن ان الفنان ضمنها رؤيته لابعاد القضية . وكنت قد قرأت هذه القصة نفسها قبل النكسة بعامين فادهشني التحليل الذي قدمته الدكتورة لطيفة بصورة كبيرة وان لم استطع في الوقت نفسه ان انكر ان القصة توحى به او ادعي انه مقم عليها . من هذا المثال وغيره كثير ، تتأكد لنا عدة حقائق نقدية . اولها ان احساس النقد بضرورة ان يعبر الفن عن همومنا الحاضرة يدفعه في بعض الاحيان الى اسقاط رؤى الناقد على الاعمال الفنية . . . والى اسقاط ملامح اللحظة الحاضرة على هذه الاعمال بدرجات متفاوتة احكاما واقحاما حسب نوعية العمل الفني وحسب جزئيات تجربته . وثانيها ان طبيعة الظروف الحضارية والسياسية تدفع الفنان الى اللجوء الى الطرق الملتوية والتخفي في مناهات التاريخ او سراديب المعادلات الخادعة . والى التسربل باوشحة عديدة تحسول بين تجربته وبين النفاذ الى وجدان المتفرج والى عقله . وثالثها ان ادراك النقد لتخلف التعبير الفني عن مستوى الحقيقة الموضوعية يدفعه الى محاولة راب الصدع بين الفن والحقيقة باسقاطات عديدة تمزق العمل الفني وهي تحاول ان توقفه على قدميه . ورابعها ان تخلف التعبير الفني عن مستوى الحقيقة الموضوعية بهذه الدرجة الشاسعة التي يدرك الناقد مداها يدفع الناقد الى الاضطلاع بعور كبير في تسجيل الحقيقة الموضوعية تلك وفي الابعاد بابعادها حتى تكون الدراسة النقدية مصدرا من مصادر الحقيقة التي عجز الفن عن ان يكونها . خاصة وان الناقد يلمس تعشش الجماهير الى التعرف على الابعاد المتنوعة لحقيقة هذه اللحظة ولكنها . وخامسها ان احساس الناقد بمسؤولية الكلمة وبان وسيلته التعبيرية تتضمن قدرا من المباشرة اكثر اسعافا للقارئ، يدفعه الى اعادة خلق الاعمال الفنية من جديد - وهي وظيفة النقد الكبرى كما يراها كروتشه - وان اضطر في بعض الاحيان الى تقديم اسهاماته الذاتية خلال عملية اعادة الخلق تلك دون ان يعتمد فقط على المعطيات المحدودة التي يقدمها الفنان .

وبعد ان رصدنا هذه الظواهر العامة . . . تخلف رؤى الفنان عن رؤى الناس العاديين وعن بساطتهم الآسرة في تناول الاحداث، وبالتالي تخلفه عنهم في الجسارة والاستبصار والتنبؤ . وغياب التعبير الفني العميق الواضح والباهر عن جوهر اللحظة الحضارية التي تعيشها الامة العربية بكل امتداداتها المتساوية . والانطفاء الكبيرة التي احدثتها حروب الايام الستة الدامية في وضع تلك القضية الكيانية . وضرورة الا تتكرر مأساة الصمت حين يجب الكلام والتي كانت من الاسباب الصانعة للنكسة . وحالة الهدوء الجنائزي التي تعيشها الامة العربية في لحظة انتظار طويلة سمجة . وتلك الاسقاطات النقدية بدلالاتها المتنوعة التي اشرنا اليها في السطور السابقة . وطبيعية التعبير الفني الذي تضطره الظروف والملابسات الى التخفي واللجوء الى الرموز والتكرار في اردية التاريخ او المعادلات الموضوعية البعيدة . وانتشار الخوف بصورة اصممت الكثيرين وزرعت في أعماقهم رقبا مزعجين ينفضون على العمل الفني وهو ما زال أفكارا جنينية لم تولد بعد . وفقدان الكلمة لنورها وانفضاض القارئ من حولها بعدما تنامى الزحف الجراحي لجحافل المجز والزيغ والخديعة . ومرارة الآلام التي نعيشها بعد فقمة الانهيار والتكاسف . واستمرار الامتدادات الاخطبوطية لخواء ما قبل النكسة الى حاضر ما بعدها في بعض البلدان العربية . . . وكل تلك الملامح والظواهر التي تشكل خلفية اللوحة في هذه اللحظة الحضارية . . . اقول بعد ان رصدنا هذه الظواهر العامة على عجل سنحاول ان نتعرف على الرسوم التي ابدعت فوق قماش هذه اللوحة العريضة الكابية .

(٢) عن الفن . . الدور والنتيجة :

من البداية سنلاحظ ان الاعمال الفنية التي كتبت بعد ايام حزيران الستة الدامية تنهض فوق هذه الخلفية الحضارية الميئة بالتوتر والتشويش . وقد انعكس هذا التوتر بصورة واضحة على تلك الاعمال الفنية لان الزمن لم يخلق خلال الشهور العشرين التي انقضت منذ النكسة حتى اليوم ، مسافة زمنية كافية لانضاج الرؤى وانضاج الابعاد . فنحن نعيش مرحلة الدهشة او الدهول . لم نق بعد من دوار الصدمة حتى نستطيع ان نتمكن من استيعاب ابعادها . ولم تتوفر لنا الخبرة الكافية لتقديم اي ادب جيد . فالمعارك التي بدأت فجأة انتهت فجأة . ولم يكد الناس يبدؤون في طلاء زجاج النوافذ باللون الازرق . وتشيد الحوائط الواقية امام واجهات الابنية ، وتكديس اكباس الرمل عند ابواب المتاجر . وتقتنع مصايح السيارات باللون الازرق . وتجديد السوائل الكيماوية داخل اوعية الاطفاء الاسطوانية الحمراء . واصطحاب اجهزة « الترانزستور » الصغيرة معهم فسي المكاتب لمناوبة البيانات العسكرية والتعرف على تطورات المعارك ، حتى انتهت الحرب . ومن ثم لم تتوفر للفنان الخبرة الكافية القادرة على اثراء الوجدان القومي بتفاصيل المعركة ، ولم يتوفر لهم سوى تجربة واحدة الجوهر متنوعة التفاصيل ، وهي تجربة الهروب الكبير او الانسحاب المتخبط السريع .

ومع كل هذا الفقر المدقع في الخبرات والتجارب الانسانية فان الفنان قد وجد نفسه ازاء واقع مرعب بعد نهاية الايام الستة الدامية . . . ازاء حقيقة لا تصدق . . . ازاء حاضر يتمخض كل يوم عن تفاصيل تزيد المأساة عمقا وغورا . . . تفاصيل ما تلبث ان تتعثر بشاعتها في طبقات الخوف المتراكمة داخله ، فتفتش في التمهض عن عمل فني كبير . . . وفوق كل هذا ازاء احتلال صهيوني جائم على قلب الامة العربية ، ملتهم للبقية الباقية من الارض الفلسطينية ، مبتلع معها لاجزاء عزيزة وشاسعة من الارض المصرية الخصيبة بالمعادن والآبار ومن الارض السورية الحصينة . . . ازاء هذا الواقع وجد الفنان نفسه مواجهها بضرورة ان يقدم للقارئ الفهم والتحليل . وان يمنحه رؤيته الخاصة للمأساة مجسمة خلال الجزئيات الحسية للعمل الفني . ومن هنا وجد

الفنان نفسه ازاء مسؤولياته في فترة من اخرج فترات الامة العربية. فاذا كانت الكتابة عملا والتزاما - كما يقول ريجي دوبريه - « فان الكاتب مسئول عن تبرير وتمجيد حرب العصابات ، وعليه ان يقبل هذه المسؤولية كامتياز » . وقد وجد الفنان العربي نفسه ازاء هذه المسؤولية التي تحدث عنها دوبريه . مسئولية تبرير وتمجيد المقاومة التي اندلعت بعد الحرب لترتق اثواب الكرامة العربية التي تهللت على جبهة القتال مباشرة . ووجد نفسه ايضا ازاء مسئولية اخرى ، وهي ان يضيء للقارئ احداث النكسة وان يبررها له ، وان يكشف الاسباب الثاوية في اعماقها والتي ساهمت في صياغتها بهذه الصورة التي ظهرت عليها . وان يستنقطب الغضب الاجوف ليعقلنه ويقوده في تلك الشعاب الزلقة المتعرجة . وبصورة مجملة ان يكون ضميرا صادقا لهذه اللحظة الحضارية المليئة بالغضب والتمزق . وازاء هذه المسؤولية الكبيرة اخذ الفنان في كل بلد عربي على حدة ، يلقي مسئولية النكسة على عاتق بلاده وحدها . . وبدا يفرز احساسا يقترب من المأسوسية في اعماله بصورة لم تتح للكثيرين ان يتعمقوا ابعاد القضية وان يقدموا فهما ناصحا لها . وقد ادت هذه الحالة الحادة من الاحساس بالامم والرغبة في تحقير الذات الى ارتفاع النعمة الذاتية عند تناول القضية العامة بصورة جنت على ملامح القضية ولم تسفر عن اعماقها . كما ادت الى تشتيت قوى الفنان في عدة مسارب جانبية ساهمت في تمييع رؤيته ، في الوقت الذي رغب فيه ان تساهم في شموليتها . وان عكست هذه الحالة جملة نوعية التناقضات الحادة التي يعيشها الفنان في هذه المرحلة الحرجة .

وتهدف هذه الدراسة الى ان تجيب على هذا السؤال الصعب . . هل استطاع الفنان بحق ان يكون ضميرا صادقا لهذه اللحظة الحضارية المليئة بالتوتر والتمزق والغضب ؟ . . وهل استطاعت اعماله ان تتجاوز حدود التعبير عما يجيش في النفس القومية الى افاق الريادة الرحبة فتعطي للفن دوره ومشروعيته ؟ . . وحتى نجيب على هذا السؤال الكبير علينا ان نطرح بديهة مجموعة من الاسئلة الجزئية الصغيرة . . هل استطاع الفنان العربي بعدما تغلغت المأساة في وجدان الوطن العربي بصورة كبيرة بعد النكسة ، بعدما انكشف القناع عن الوجه القبيح لكثير من الحقائق والقضايا ، بعدما استفحل خطر الكابوس الصهيوني وانفرست في الاعماق انيابه القاسية . . هل استطاع الفنان العربي بعد كل هذا التغيير الجذري والكياني في شكل القضية العربية وفي جوهرها ان ينتج ادب مقاومة بحق ؟ . . ان يخلق النماذج والتجارب والشخصيات والاعمال الفنية القادرة على اثراء الوجدان العربي وعلسى ايقاظ روح المقاومة الثانوية فيه ؟ . وهل استطاع الفنان ان يمنح الانسان العربي شيئا يعادل البندقية بالنسبة للفدائي ويرافقها في الوقت نفسه ؟ . . هل استطاع الفن العربي بعد النكسة - والدراسة قاصرة هنا على الفنون التعبيرية التي تلجأ الى الكلمات - ان يصنع تيارا دافقا من الاعمال الفنية يجتاح في طريقه السدود . . يجرف عشرات الاشياء الكئيبة والمعوقة والتي يزخر بها واقفنا العربي - تيارا دافقا يجتاح ويظهر ويغير ؟ ! .

(٣) أبدا . . لم ينهزم الانسان

وهل استطاع الفن ان يؤكد تلك الحقيقة الاساسية الكبيرة، وهي ان الانسان العربي لم ينهزم ، لان الانسان العربي اذا ما انهزم فلا وسيلة لانصاره ابدا . فالانسان لا يمكن ان ينهزم في اي مكان في العالم ، مهما كانت حدة الضغوط التي تقهره . . من الممكن - كما يقول همنجواي العظيم - سحق الانسان ، ولكن هزيمته غير ممكنة . . هل فطن احد الى هذه الحقيقة الكبيرة . . الى ان الانسان لم ينهزم ولكن ربما الذي انهزم حقيقة هو تلك العلاقات والمواقف القديمة المبنية على املاء الارادة واصدار الاوامر وحل المشاكل بالكلام المسول . وربما كان الذي انهزم ايضا هو العقلية التي كنا ننظر بها الى مشاكل

الانسان العربي ، عقلية علاج العلل بالتعاويد والصيغ المأخوذة من الكتب والشارات الديماغوجية والسياح والخطب والاناشيد وهز القبضات في الهواء واطلاق « الفسك » الفارغ على حد تعبير اخواننا السوريين (١) . وربما كان الذي انهزم حقا هو اغراق طاقات الناس في مسارب جانبية وامتصاص فعاليتهم خلال الاهتمام الجنوبي بمباريات الكرة وحفلات ام كلثوم الفنايية التي تدوم حتى ساعات الصباح الاولى ، فيروج معها الخدر وتنتشر المخدرات . وربما كان الذي انهزم ايضا هو تخاذل المثقف العربي وعدم قدرته على الارتفاع الى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه ، وصمته على ما يحدث للكلمات امام عينيه من مسخ ومناجاة وتشويه ، ومن استيلاء العهر عليها وتوجيهه لمصيرها ، وابثاره للسلامة ازاء كل هذه الاشياء المشرعة في وجهه . وربما كان الذي انهزم ايضا هو شهوة التسلط واسلوب الانقلابات المتتالية للوصول الى الحكم ، والمكابرة الكاذبة ، وتربية النماذج الانتهازية وتشجيعها . ربما كانت هذه في الواقع هي الاشياء التي انهزمت اما الانسان العربي فانه لم ينهزم . لقد رفض الهزيمة عشية علمه بها . . بل لحظة مواجهته بها ذاتها . وخرج في ٩ يونيو وسط الظلام والغارات الجوية ليعلم رفضه للهزيمة وتمسكه بقيادة جمال عبد الناصر واصرارها على تحقيق النصر . . . فهل حاولت الاعمال الفنية ان توميء بهذه الحقيقة العميقة لتحصد اليأس من النفوس وتضيء للقارئ الطريق وتكشف له اسباب الهزيمة ، وتضع اقدامه على الطريق الى تلافياها باذرة الامل في اعماقه . وهل استطاعت ان تعثر على جذور حالة اللامبالاة التي تمور في وجدان قطاع كبير من اناس الشارع العاديين - بعيد النكسة - وكان الهزيمة ليست هزيمتهم ، وليست الحرب حربهم ؟ ! .

أو بمعنى آخر . . هل استطاع الفن ان يساهم في خلق شخصية عربية جديدة وان يجهز - باقتدار وجسارة - على تلك المواضع الرهيبة التي ولدت في مباءها اجنة النكسة منذ اعوام طويلة ، ثم نمت في سراديبها المغممة بداب حتى نخرت العظام ، ودب في نخاعها السوس ؟ ! . وهل استطاع الفن ان يمنح الانسان العربي عيونا جديدة يرى بها واقعه . . . عيون لا تستسلم ولا تبكي ولا تتخاذل ، لا تندم ولا تناسى ولا تقنات بسراب الحلم . . . ولكن عيوننا مشرعة الى المستقبل راغبة في اجتياز عشرات واقفها المرير قادرة على تغييره ؟ . وبصورة اخرى . . هل استطاع هذا الادب ان يجتاز مفازة المقاومة السلبية التي ظلت الطابع الغالب على ادب المقاومة منذ عشرين عاما الى رحابة المقاومة الايجابية التي تفهم الواقع بوعي لترفضه ثم تتجاوزه وتغيره؟ . وهل ادرك سقم الناسي على بيارات البرتقال الضائعة ، وتعلم ممن اسلوب (العلمنة) في التعامل مع المأساة الطريق . هل استطاع الفنان ان يرتفع الى مستوى مفاتيح (فتح) البواسل ، وان يقدم للقضية ما قدمه لها ذلك الطفل العظيم المدهش الذي انجبته (الجبهة الشعبية) والذي اهتزت له قلوب العالم عندما وقع في الاسر (جواد انور البشيتي) . . ذلك الطفل الذي فجر النيران مع زميله الشهيد (رياض جابر) في ردهات فندق وندسور بالقدس حيث مقر الحاكم الاسرائيلي ، وفي مبنى جريدة (معاريف) الاسرائيلية ، وفي مستودعات الوقود بمحطة البقعة وفي محطة البنزين قرب بوابة (ماندليوم) وفي غير ذلك من العمليات الشجاعة الرائعة . . هل يستطيع ابناء مصر الذين يعضون كسلهم وتحللهم في المقاهي الفاخرة ، ويتشدقون بالفاظ طنانة عن الكرامة والحرب ، ويسخرون ممن الكلمة بالكلمة . . هل يستطيع هؤلاء - وانا اعرف ابناء القاهرة جيدا ، ولا ادري هل حالهم تلك هي حال ابناء بقرية بلدان امنا المكلمة - ان يقدموا شيئا يرتفع الى مستوى بطولة هذا الطفل المعجز الذي لما يتجاوز بعد عامه الثالث عشر ؟ . . هل يستطيع هؤلاء ان يقدموا شيئا عن المقاومة ؟ ! . ان ادب المقاومة لا يتوهج الا في قلب المقاومة . عندما يكتب

(١) راجع دراسة غائب طعمة فرمان ، مفهوم ادب المعركة ، الاداب

والمقاومة . بالجراح الدامية وبالاحداث المهلكة ومجازر الابادة الوحشية في دير ياسين وفي كفر قاسم . ومن ثم فان القضايا الرئيسية التي يطرحها شعر فنان الارض المحتلة تختلف عن كل القضايا التي تناولها الشعراء الفلسطينيون في المنفى او الشعراء العرب في البلدان المحيطة . وكذلك تختلف الاساليب التعبيرية التي يفني بها شاعر الارض المحتلة هذه القضايا .

وحيثما نبدأ بهذا الادب فانه ينبغي علينا بداية ان نعرف ان كتابة هذا الادب الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة ، تمنحه مذاقا خاصا وطعما فريدا . تصبح فيه للكلمات العادية التي يستطيع اي شاعر في اي بلد عربي ان يجيها جانبا لانها شيء بديهي ، يمسخ القارئ ان يسمعه . . يصبح لمثل هذه الكلمات العادية والمألوفة رنين خاص . ان كلمة (انا عربي) التي يستطيع اي انسان ان يعثر عليها ملقاة على فارعة الطريق في اي بلد عربي تكتسب في الارض المحتلة سحرا خاصا . . يصبح لها شرف الشجاعة ولعة المخاطرة ، ومن ثم ينغني بها الشاعر ، والشاعر في الارض المحتلة فارس يتيه بعروبته خيلاء .

سجل !.. انا عربي
وكفى صلبه كالصخر
تخمس من يلامسها
وأطيب ما أحب من الطعام
الزيت والزعتر
سجل : انا عربي
فهل تفضب (٢)

ان هذه الكلمة العادية : انا عربي ، تتوهج هنا في قصيدة محمود درويش بوهج الشعر ويران المقاومة ، لانها تقال وسط مناخ تتعاطف فيه كراهية العرب . وتصبح فيه كلمة (انا عربي) هذه الكلمة البسيطة التي تقال دونما معاناة في بقية البلدان العربية ، شيئا كالفدائية وجريمة تعادل في بشاعتها القاء قنبلة وسط دار خاصة بالاسرائيليين . ومن هنا تكتسب الاشياء العادية طعم البطولة ، فما بالك بالاشياء الشجاعة والمخاطرة ، وقد قدم شعراء الارض المحتلة منها الكثير ؟
وشعراء الارض المحتلة كثيرون بصورة واضحة ومتفردو المواهب والاصوات . ينتهون الى اجيال عديدة تبدأ بجيل راشد حسين الذي تجاوز الخمسين وتمتد الى ما بعد جيل محمود درويش الذي لم يبلغ الثلاثين بعد ، مارة بعصام العباسي وحنان ابو حنا وتوفيق زياد وسميح القاسم وحبیب قهوجي وسالم جبران وفوزي عبد الله ومحمود دسوقي وفوزي الاسمر وتوفيق فياض وفهد ابو خضرة واحمد حسين وعطا الله

(٢) محمود درويش ، من قصيدته (بطاقة هوية) من ديوان (عاشق من فلسطين) .

رحلته الحروف والصفر

ديوان جديد

للشاعر الكبير

بلند الحيدري

« دار الآداب »

صدر حديثا

الكاتب بعد السونكي بدلا من سن القلم . وحينما ينصت لدمدمات الرصاص ، بدلا من حوريات الفن الفارقات في اللذة القابعات وسط دنان الخمر وكؤوس الشراب . ان ادب المقاومة العظيم الذي انتجته حركة المقاومة الفرنسية و (منشورات منتصف الليل) الباهرة، والذي تفجر به شعر اراجون وايلوار وقصص جونكور وسارتر ابان الاحتلال النازي لفرنسا ، لم يتوهج الى هذا الحد ، ولم تتحول فيه الكلمات الى شظايا ، الا لان المحارب عاقق الفنان في وجدان الكاتب . والا لان الفنان خاض الى جانب المقاتل بالبندقية قبل القلم معارك النضال . وكتب مسودات قصائده جوالا في المناريس ، وخطط لقصصه داخل الخنادق وخلال لحظات الترقب في عمليات الليل الخاطفة . فاين هذا من شعر ماضفي الكسل والتحلل على مناصد المقاهي . ومن ثمرات المدعين في الندوات الخالية من الجمهور . فهناك فارق كبير بين الذي يكتب عن المقاومة وبين الذي يعيشها . . بين الذي يتصورها وبين من تنضج كلماته على نيرانها . . وانا هنا لا اطالب بان يظهر ادب يستوعب النكسة ويعبر عن شتى ابعادها . لانني اعرف ان الشهور العشرين التي انقضت منذ وقوعها ليست بالفترة الزمنية الكافية لانضاجها وخلق تعبير فني جيد عنها . هذا فضلا عن اكتناظ هذه الشهور العشرين بالانفعالات الجامحة والتوترات المتوفرة . . ولكن الذي اطلبه وابحث عنه ، هو ان يظهر اثر هذه الهزيمة الدامية على الادب واضحا في شكل انعطافة حقيقية في مسيرة ادب النكبة. تقترب بهذا الادب من ان يصبح نفسه فعل مقاومة . وان يجناز مرحلة التعبير عن المأساة ثم مرحلة رفض واقفها الراهن معا . وان يصبح هذا الادب فعل ثورة ومقاومة وتحفز ، يعني في الوقت نفسه ان يساهم في المقاومة المسلحة وان يخلق حولها وبها ، اثارا تستدعي السى كتائب المقاومة المزيد من العزم والقتال والتصميم .

وحتى ننلمس الاجابة على هذه الاسئلة العديدة علينا ان نتناول الادب الذي انجته البلدان العربية بعد النكسة ، لنرى هل استطاع ان ينهض بالمسئولية الفادحة الملقاة على عاتقه ام لا ؟ . . وحتى نستطيع تناول كل هذا الادب الوفير برغم القصر النسبي للفترة الزمنية التي ابدع فيها دونما تسرع او عمومية ، فاننا سنجزئ هذا الادب الى عدة اقسام رئيسية . اولها الشعر الذي كتب في الارض المحتلة . وثانيها الشعر الذي كتب في بقية البلدان العربية الاخرى . وثالثها عن القصة القصيرة في الارض المحتلة وفي البلدان العربية الاخرى . ومن الممكن ان يأتي قسم رابع عن المسرحية اذا ما توفرت النصوص القادرة على فرض مثل هذا القسم على مخطط هذه الدراسة .

(٤) الشهر في الارض المحتلة . . لماذا ؟

ولنبدا بادب المقاومة داخل فلسطين المحتلة ، وبسبب المقاومة داخل فلسطين المحتلة بالذات . لان هذا الادب وحده هو الذي يستطيع ان يجيب على كل هذه الاسئلة التي طرحناها بنعم . . وبنعم كبيرة معتزة بذاتها مستريحة لاضطلاعها بدورها . ولان الفنان في الارض المحتلة يعيش اكثر من مأساة واحدة . يعيش المأساة العامة التي يعيشها الفنان العربي خارج الارض المحتلة بصورة مضاعفة . فلسطين التي ضاعت بالنسبة لهذا الاخير مرة ، تضيع تحت سمع فنان الارض المحتلة وبصره في اليوم الف مرة. تضيع في كل خطوة يخطوها وفي كل نسمة هواء يستنشقهها . . وهو يعيش فوق ذلك تلك المأساة الضارية التي اعقبت المواجهة المريرة في ايام حزيران الستة الدامية . مأساة الانهيار الرهيب لقصور الاماني وانسحاق اشعة الامل ، وتناهي الخلاص الذي ترقبه بتوق وشغف منذ عشرين عاما . وهو يعيش مأساة الاضطهاد اليومي للعرب الباقيين في الارض المحتلة . ويسمع كل يوم ويعيش احداث الابادة المنظمة للشخصية العربية للكيان العربي وللكرامة العربية وللمقاومة العربية . انه يعيش المأساة بصورة مضاعفة . لانه يعيش في قلبها المتوهج بالحق والحزن والاسى . . بالفيظ والثار

منصور و ابراهيم مؤيد وزكي سليم درويش و جمال فوار و ابسو اياس و طارق عون الله و احمد بونس و هابل عاقلة و يعقوب حجازي و فتححي قاسم و نايف سليم و معمر حمودة الزغبى .. وغيرهم كثير من الشعراء الذين لم تخترق اصواتهم الاسوار بعد ، لتصل اليها والسى العالم خارج الحدود الاسرائيلية .. والى خصم تيار هؤلاء الشعراء الدافق ، انضمت الشاعرة العربية الكبيرة فدوى طوقان ، بعد ان رفضت النزوح عن نابلس عقب النكسة ، وانصهرت في بوتقة المأساة ، وتالقت كمناسة حرة وكبيرة واصيلة . فهجرت الصوت الرومانسي الحالم الذي وشح اغانيها القديمة برداء من الغناء الانفعالي الاسيان ، وبتشوف رفاف الى الانغماس في الحب والتدله في الهوى والهجر والعذاب . خلال دواوينها الثلاثة القديمة (وحدي مع الامام) و (وجدتها) و (اعطنا حبا) .. وانطلق لها من عمق الجراح صوت جديد قوي نشوان يستطيع ان يغني من خلال المأساة للارض والحب والانسان والبطولة . والحقيقة ان شعراء الارض المحتلة هؤلاء وهم يغنون وسط دوامة الجراح الدامية الحارقة لاشراقة الامل الوليدة . ويفجرون اجنة الفرح في قلب الحزن والاسى . يوقظون الانسان العربي والفنان العربي معا . وينبهون الى الوسيلة التي يستطيع فيها الشعر ان يكون سلاحا يحارب وسكيننا تمزق ..

نتعلم منكم منذ سنين

نحن الشعراء المهزومين

نحن الغرباء عن التاريخ وعن احزان المحزونين

نتعلم كيف الحرف يكون له

شكل السكين (٣)

فالشعر الحقيقي لا يتألق الا عندما تعانق حروفه معاناة الانسان وبطولة الانسان .. وفي شعر الارض المحتلة الذي تتألق فيه الجراح والبطولات معا . استطاع الشعر ان يجتاز مرحلة التعبير عن القضايا الى مرحلة المشاركة فيها .. استطاع ان يكون زهرة من دم تتألق وسط الجمر لتوقد الهمم وتوقظ القبور القديمة ، فتنهض نائرة وسائرة على قدميها .. او بمعنى ادق استطاع ان يكون شعرا بحق ..

شعراء الارض المحتلة

يا اجمل طير ياتينا من ليل الاسر

يا حزنا شغاف العينين ، نغيا مثل صلاة الفجر

يا شجر الورد النابت من احشاء الجمر

يا مطرا يسقط .. رغم الظلم ورغم الفجر

نتعلم منكم كيف نغني من اعماق البئر

نتعلم كيف يسير على قدميه القبر

نتعلم كيف يكون الشعر (٤)

وقبل ان نتناول القضايا الاساسية والمشاركة التي يلجح عليها شعراء الارض المحتلة ، علينا ان نتعرف على رؤية هؤلاء الشعراء . وعلى التحولات التي طرأت على شعرهم فهما واسلوبا عقب الايام الستة الدامية من شهر حزيران .

(٥) حزيران .. أو عندما سقطت الاقنعة

لا شك ان الهزيمة الدامية التي مني بها العرب في حزيران كانت مفاجأة للجميع ، صفة قاسية في اللحظة التي كنا ننتظر فيها القلوات . لكن وقع هذه الهزيمة القاسي لم يكن مدمرا على نفوس شعراء الارض المحتلة كما توقع الكثيرون . ولم يوقعهم في يران اليأس او يفرقهم في مناهات العدمية وسراديبيها . صحيح ان شاعر الارض المحتلة شاهد من جديد تكرار المأساة التي لم تع طفولة تفاصيلها الكاملة، ورأى كارثة جديدة تحيق بشعبه .. بشعب المأساة .. كارثة جديدة

(٣) ، (٤) من قصيدة نزار قباني (السى شعراء الارض المحتلة)

الاداب ، ابريل ١٩٦٨ .

بما يعقبها من مشردين جدد ولاجئين جدد ومن احتلال وقمع ومظالم . لكنه لم يندب حظه بعد هذه الكارثة الجديدة ولسم يستسلم لليأس عقبها . فقد أدرك ان هذه النكبة الجديدة ليست فسي الواقع سوى تكاتف الحلقة في (اخر الليل) (٥) بصورة تنبئ عن اقتراب الفجر . وانها (دخان البراكين) (٦) الاسود الكثيف يندلع قبل تفجر الحمم الذي يقتحم ويكتسح ويغير . وانه برغم كل هذه الظلمة المتكاثفة على (موعد مع أطر) (٧) ومع الفجر ومع العطاء . فالشاعر الحق يستفيد من المأساة ولا ينتكس معها . ولذلك فهو موقن من ان عنف الهزيمة لم يكن شرا كله . لانه فتح له ابواب المراجعة على مصاربعها . مراجعة الافكار القديمة والاحلام القديمة والابطال القديمة والثقات القديمة .. مراجعة كل شيء بعدما سقطت جميع الاقنعة وانزاحت معها عن عيني الفلسطيني الفشاوة .

سقطت جميع الاقنعة

سقطت فاما رايتي تبقى وكاسي المتربة

او جثتي والزوبعة

سقطت فشور الماس عن عينيك

يا رجلا يصول بلا رجولة

يا سائقا للموت أحلام القبيلة

سقطت تماثيل الرخام

سقطت دموعك يا تماسيح التواريخ الطويلة (٨)

لقد سقطت الفشاوة عن عينيه . وادرك ان هؤلاء الذين منحهم طوال عشرين عاما ثقته ، وعلق عليهم أحلامه ، ليسوا سوى تماثيل رخامية جوفاء . وان هؤلاء الذين كانوا يتباكون على القضية ويذرفون على ضحاياها دموعهم ليسوا سوى تماسيح كاذبة تتعمد المناجسة بالقضية ولا تخلص لها . وان القضية اخذت بعد هذا السقوط المروع وضعا جديدا اصبحت معه قضية حياة او موت . ومن ثم لم تعد للاغنيات الحزينة ولا للاساطير الذليلة قيمة فقد سقطت هي الاخرى خلال تلك القفعة المدمرة الكبيرة ..

سقطت اغانيك الحزينة والاساطير الذليلة

يا حالما بالارض خادمة مطيعة

تعطيك من اختامها ما شئت

تكريسا لشهوتك الوضيعة

سقطت ممزقة على درب الرياح الاربعة

سقطت ... جميع ... الاقنعة (٩)

جميعها دون استثناء .. حتى الاقنعة المحكمة البناء التي تخفي العدو وراء صلابتها لاعوام طويلة ، فاقنعت العالم بأنه مجرد حمل وديع قوامه مليون صهيوني عاشوا الشقاء والشتات والاضطهاد النازي المرعب . ويبحثون لانفسهم عن مكان يعيشون فيه بسلام . لكن العرب يرضون عليهم بهذا الحق « الانساني » البسيط .. حتى هذه الاسطورة الزائفة التي افنعت بها اسرائيل الرأي العام العالمي . سقطت هي الاخرى وسط قفعة الانهيار الكبير .

وتظل تصرخ :

« يا ضمير الناس من يحمي من العرب الرعاع

بيت الحزاني العائدين من الضياع ..

وتشد نابك في ذراعي

وانا أشيد سدي العالي .. وأحلم

بالمدارس .. والمصانع .. والمراعي

(٥) عنوان ديوان محمود درويش الاخير .

(٦) عنوان ديوان سميح القاسم قبل الاخير .

(٧) عنوان ديوان فوزي عبد الله الاخير .

(٨) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة) منشورات دار

الاداب .

(٩) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة) .

يا من تخاف من المدارس والمصانع والمراعي
من حفنة القمح المبلل بالدموع وبالدماء
للكادحين من الصباح الى المساء
للثائرين من الجياع (١٠)

هكذا مزقت النكسة الاقنعة عن كسل شيء ، فانكشفت الحقيقة ،
وتعرت التماثيل الرخامية الجوفاء . وتهنتك الدعايات المضللة لاسطورة
الحمل الوديع العائد من صحراوات الضياع ليريح بجوار حائط المبكى
هومو . تهنتك هذه الاكثوبية وانكشف وجهه اسرائيل الاستعماري
البغيض . وماتت جميع الاكاذيب الواهية التي تعلق الفلسطيني بها ،
وركن اليها صامتا ، تاركا قضيته في ايدي الحكام العرب . واسفرت
الوعود الدولية والضمير الدولي عن طابعها السرابي الخادع . وتيقن
الفلسطيني من ان المحافل الدولية لا تملك لقضيته حلا . وان زمامها
الوحيد بيده هو . لانه يصارع عدوا ضاربا لا يابه بالضمير العالمي ولا
بالقرارات الدولية . . ومن ثم فانه يصرخ في وجه مجلس الامن هازئا
بعدها انزاحت عن عينيه القشاة . .

ناديت من عشرين عام

يا مجلس الامن الموقر - اه - !!

من عشرين عام .

واليوم عبر صواعق متربصات بالسلام

صوتي يجيئك بالبريد

من غابة الدم والحرائق والمرارة والخيام

صوتي يجيئك زهرة حمراء في العام الجديد

من ياتي قاتلا . .!

يرتد عن بابي قتيلا !! (١١)

انه يرفض الوعود الدولية الخادعة . ويدرك ان عليه هو وحده ان
يمسك بزمام قضيته وان يصنع مصيرها . ومن هذا الادراك الجديد
الواضح كشمس يوليو ، القاسي مثلها ، يولد الفلسطيني من جديد .
يولد فلسطيني آخر غير ذلك الذي عرفته بطاقات الصليب الاحمر
وقوائم وكالة الفوت وساحات المخيمات فسي غزة ووادي الاردن .
فلسطيني ولد وسط بوتقة النكسة وانصهر في اتونها . فرفض كل
الاساطير القديمة والاذغيات القديمة . فلسطيني لا يمد يده ليشحذ
ولكن ليظن ويحارب ويقاوم . فلسطيني ولد غداة الخامس من شهر
حزيران . . .

ضربة البرق التي تنفض في عرض الطريق

تفمر العابر بالضوء ولو كان حريق

يذكر القارئ ، او لا يذكر القارئ

لكني ، لكي يفهم كل الناس ما قلت

أعيد :

نحن في الخامس من شهر حزيران

ولندا من جديد . . (١٢)

ومع هذه الولادة الجديدة اقبل واقع جديد . عالم جديد غير عالم
الاحلام والامنيات القديمة . عالم يصرع هذه الجثث القديمة وينهض
شامخا فوقها . لا يناسى على موتها بل يستمد منه الاصرار والصلابة .
فهذا الواقع الجديد ليس امتدادا جديدا للقديم ولكنه نقى له . انه
الجديد الذي يولد فوق جثة القديم ، ينمو منها وضدها معا . لذلك
تموت كل الاساطير القديمة والتثنيات القديمة . . لكن موت هذه
الاساطير لم يجرف الشاعر معه . لانه يرفض الموت حتى بعدما انهارت
الاحلام القديمة الوضيئة . . .

وليكن . . .

لا بد لي ان ارفض الموت ،

(١٠) و (١١) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة) .

(١٢) من قصيدة سميح القاسم (حدث في الخامس من حزيران)

من ديوان « سقوط الاقنعة » .

وان كانت اساطيري تموت
انني أبحث في الانقراض عن ضوء
وعن شعر جديد (١٣)

لا بد له اذن ان يرفض الموت وان يبحث وسط الانقراض عن ميلاد
جديد ، وعن منطلق جديد لقضيته . خاصة وقد تكشفت النكسة عس
واقع مغاير تمام المغايرة لذلك الذي عاشته المأساة الفلسطينية قبلها . .
اول جزئيات هذه المغايرة ان كل الارض الفلسطينية قد وقعت في الاسر
.. بجبالها وصحاريها ووديانها الخصيبة . .

أترى الى كل الجبال

وكل بيارات أهلي

كيف صارت كلها

صارت أسيرة

وأنا كبرت . . كبرت

يا حبي القديم مع الجدار (١٤)

واتساع رقعة الارض الاسيرة يعني لدى الفلسطيني ازدياد عمق
المقاومة واتساع رقعتها . فالشاعر لم يتغير مع تفاقم المأساة بالصورة
التي كانت تداعب احلام عدوه . ولكنه ازداد معها تمسكا بموقفه واصرارا
عليه . لم يستسلم لليأس بل مضى مع التفاؤل حتى منتهاه . .

- هل تغيرت كثيرا ؟

- ما تغيرت كثيرا . .

عندما نرجع ، كالريح ، الى منزلنا

حدقي في جهتي

تجدي الورد نخيلا

والينابيع عرق

تجديني ، مثلما كنت

صغيرا وجميلا (١٥)

وهذا التفاؤل الذي يعيشه الشاعر ليس تفاؤلا ساذجا . ولكنه
تفاؤل ثوري يولد وسط المأساة ويتلمس وسط حلكتها السادرة خيوط
النور . تفاؤل يدرك فداحة المأساة التي تعيشها القضية الفلسطينية بعد
النكسة ، ولكنه لا يستسلم لليأس ولا يضحك الهزيمة . تفاؤل يدرك دور
الفن في ان يكشف ويعري ويأسو الجراح معا . . وان يأخذ بالايدي
ويستنهض الهمم . .

أصمدي . . لا تضعفي . . يا ابنة عمي

هذه الارض التي تحصدنا نار الجريمة

والتي تتكلم اليوم بحزن وسكوت

هذه الارض سيبقى

قلبها المدور حيا لا يموت (١٦)

تفاؤل يدرك ان الهزيمة شيء والموت شيء آخر . وان الذي انهزم
حقا شيء غير قلب هذه الارض وانسان هذه الارض الذي تحمل الآف
الرزايا بجلد وصلابة . والذي تضرب جنوده في اعماقها وتمتد السى
اغوار اغوارها . فاذا ما انثنى جذعه امسام ربح عاتية ، فليس معنسى
هذا انه قد انكسر او هوى . . ان شجرة الانسان . . شجرة الحياة فوق
هذه الارض ، لن تهوى ولن تنحطم . انها انثنت فقط ، وسوف تنهض
ثانية من جديد . . .

ستقوم الشجرة

(١٣) من قصيدة محمود درويش (الورود والقاموس) من ديوان

(آخر الليل) .

(١٤) من قصيدة محمود درويش (كبرر الاسير) من ديوان

(آخر الليل) .

(١٥) من قصيدة محمود درويش (مقاطع) نشرت بمجلة (الطريق)

البيروتية ، اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(١٦) من قصيدة فدوى طوقان (حمزة) نشرت بمجلة (الاداب)

نوفمبر ١٩٦٨ .

ستقوم الشجرة والاصنان
ستمو في الشمس ونخضر
وستورق ضحكات الشجرة
في وجه الشمس
وسياتي الطير ..

لا بد سيأتي الطير ، سيأتي الطير ، سيأتي الطير (١٧)
نعم .. ستقوم الشجرة من جديد لان جنورها تلغ في دم مئات
الاطال والضحايا . وستأتي الطيور .. رمز الحياة والسلام والهناء .
والشاعر يعرف ان قيام الشجرة ومجيء الطيور ليسا بالشيء اليسير .
انهما مطلب صعب يستنزف تحقيقه المزيد من الدماء والمزيد من
التضحيات . خاصة وان الدرب الجديد الذي دفعت اليه القضية
دفعاً بعد النكسة بدل الكثير من الرؤى والمعابير . واعاد طرح عشرات
الافكار القديمة ومراجعتها من جديد . ومن اهم الافكار التي اعيدت
مراجعتها فكرتنا الثار والعودة .

(٦) الحياة .. وليس مجرد الثار

بدأ الشاعر يرفض فكرة الثار القديمة التي حوصرت القضية في
اطارها الضيق لسنوات عديدة .. فالظروف الجديدة نفسها هي التي
دفعت القضية الى اجتياز هذه الفكرة المحدودة . فلم تعد القضية
قضية ثار يستطيع معها الانسان ان يعيش مجرد حياته البسيطة ذاتها ،
سواء اثار لنفسه ام لم يثار لها . ولكنها أصبحت قضية الحياة ذاتها
بتفاصيلها المتناهية الصغر .. قضية ان يكون الفلسطيني هنا والآن ،
او لا يكون على الاطلاق ، بل لقد تجاوزت التحديات كسل هذا ،
واصبحت القضية ليست في ان يكون الفلسطيني او لا يكون فحسب ،
بل ان يكون العرب او لا يكونوا . لقد تعرضت كينونتهم ذاتها للخطر ،
بعدها اثبت الوحش الصهيوني ان اطماعه التوسعية لا تعرف الحدود .
وان تلك العبارة البندلة التي تنصدر واجهة الكنيست الاسرائيلي
(من النيل الى الفرات) ليست مجرد عبارة دعائية ، او شعار
للاستهلاك المحلي .. هكذا بعد ما فاق تبجح العدو الصهيوني كل مدى ،
بعد هذه المكاشفة الكبيرة المبررة اخذت القضية الفلسطينية هذا
الوضع الجديد الذي أصبحت معه قضية حياة او موت .. قضية
الحياة ذاتها ..

اواه يا مدينتي الصامدة الحزينة (١٨)
هكذا تعني هزيمة العربي موته ، موته المادي والمعنوي معا . تعني
القضاء على ضحكات الاطفال والاجهاز على كل مظاهر الحياة التي
يعيشها ، على كل جزئياتها المتناهية الصغر على الاغنيات البسيطة
والضحكات المجلجلة البريئة وكل ما تحمله الكلمات في حروفها من حياة
.. فالمحتل لا يكتفي باضطهاد العربي والاستيلاء على ارضه ، ولكنه يريد
ان يستولي على حياته ، ان يجهز على القدرات الثاوية في اعماقه ..

كان في ودي ان اسمعكم
قصة عن عندليب ميت
كان في ودي ان اسمعكم
قصة ..
لو لم يقصوا شفتي (١٩)

ان يقص شفتيه ، رمز الحياة الاكبر في جسد الفلسطيني ، فلا
يهمه ان ينفض قلب الفلسطيني او يتوقف عن النبض ، وانما الذي يهيم
المحتل هو ان تخرس الشفتان فلا تتكلما أبدا . لان في هذا الموت
المعنوي للفلسطيني بداية الموت الحقيقي له . ومن ثم يتمرد
الفلسطيني على هذا الموت ويحس بالصمت ثقيلًا ورايضًا كالجبال
وغامضًا كالليل ، صمت بليد ينشر الحزن ويقضي على الاغنيات وعلى
الانفعالات البسيطة ذاتها لانه صمت الهزيمة . صمت المقهور وهو
يستجمع قوته لينفجر ويدمدم بالفضب والثورة .. في ظل هذا
الصمت الجنائزي لا يستطيع الفلسطيني ان يمارس طقوس حياته ،
لا يستطيع حتى ان يحب لان مدينته الحزينة الصامدة محملة بوطاة
الموت وبالهزيمة .

لو ان الافاعي الهواك ليست
تعربد في كل درب
وتحفر قبراً لاهلي وشعبي
وتزرع موتاً ونار
لو ان الهزيمة لا تظن الان ارض بلادي
حجارة خزي وعار
لكنت الى جنبك الان
عند شواطئ حبك ارسى

- التتمة على الصفحة ٩٢ -

(١٨) من قصيدة فدوى طوقان (كلمات الى وطني) نشرت في
(الآداب) سبتمبر ١٩٦٧ .
(١٩) من قصيدة سميج القاسم (الشفة المقصوصة) نشرت في
مجلة (الطريق) اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

قريباً

دار الآداب تقدم
عدداً من مجموعات الشعر الجديد
الجوع والقمر
للشاعر محمد عفيفي مطر
●
حديقة الشتاء
للشاعر محمد ابراهيم ابو سنة
●
نخلة الله
للشاعر حسب الشيخ جعفر

يوم رأينا الموت والخيانة
تراجع المد واغلقت نوافذ السماء
وامسكت انفاسها المدينة
يوم انحسار الموج ، يوم اسلمت
بشاعة الهوى الى الضياء وجهها
ترمد الرجاء
واختنقت بغصة البلاء
مدينتي الحزينة
اختفت الاطفال والاغاني
لا ظل ، لا صدى
والحزن في مدينتي يدب عارياً
والصمت في مدينتي مهيم
مخضب الخطى
الصمت كالجبال رابض
كالليل غامض
الصمت فاجع محمل
بوطة الموت وبالهزيمة

(١٧) من قصيدة فدوى طوقان (كلمات الى وطني) نشرت بمجلة
(الآداب) سبتمبر ١٩٦٧ .

شعر المأساة في الأرض المحتلة

— تذييل المنشور على الصفحة ٧٦ —

سفينة عمري

لكننا كفرخي حمام (٢٠)

ان وطأة الهزيمة ترزح فوق كل شيء ، تستلب المعنى من كل ما في الحياة من بساطة وبهجة وحب . فليس لأي شيء معنى ولا قيمة في حضورها الكئيب المزعج .. في حضورها ذلك لا يستطيع المحب أن يتواصل مع حبيبته ، ولا يستطيع الطفل أن يالف لعينه ، ولا يستطيع الضحكات أن تتواكب فوق الشفاه أو تزفرد فوق الوجوات .. أو بمعنى آخر ، لا يستطيع الحياة أن تسير في الوطن . فليس الوطن مجرد الأرض والجبال والأشجار . ولكن الوطن هو العودة الآمنة إلى البيت وعناق الزوجة والارتقاء في حضن الام ..

ان الوطن

أن احتسي قهوة أمني

أن أعود ، آمناً ، مع النساء (٢١)

ولقد فقد الفلسطيني — حتى — الموجود في الأرض المحتلة الوطن بهذا المعنى ففقدت الحياة طعمها . وماتت فيها كل مظاهرها الطبيعية . ومن ثم أخذ الشاعر يعيد طرح القضية على هذا النحو الجديد ، على أنها قضية الحياة ذاتها وليست مجرد قضية ثار قديم ، فقد توحد الفلسطيني بالآلام الهائلة التي تخضت عنها النكسة ، وأصبح جزءاً من هذه الجراحات الجديدة الدامية ..

وأنا نمناعة التل

أنا التبع وغصن الورد

والزراب والمدفأة المهجورة

السطح .. أنا سنبلة الحقل

الشجيرات .. ودوري القباب

وأنا قطعة أرض ، سكة .. همة فلاح

رحيل في التراب

فاذا بيارة تطلع من لحمي

وأطفال وخبز وكتاب (٢٢)

هكذا توحد الفلسطيني بالأرض والجراحات الجديدة ، بصورة

جعلت داخله يشتمل برؤى جديدة تعيد النظر في كل شيء .. في قضية الثار كما رأينا وفي قضية العودة أيضا .. فلم تعد العودة التي يريدنا الفلسطيني هي تلك العودة الرومانسية العقيمة ، التي امتلات بها الاغنيات وأفضت ، على مدى عشرين عاما ، إلى درب مفلق . ولكنها أصبحت عودة تشتمل بالنار وبالثورة . فالعدوان الذي وسع رقعة الأرض المحتلة ضاعف أيضا عدد اللاجئين وعمق مأساتهم . لكن الشيء الجديد هو ان معسكرات اللجوء تحولت إلى ساحات تدريب على القتال والمقاومة . وان رافضي الهجرة والنزوح توحدوا مع طالبي العودة وامتزجوا بهم بصورة صنعت من أجسادهم الراضية الثاوية في قيعان نهر الاردن ، جسرا حيا للعودة ..

الجسر يكبر كل يوم كالطريق

وهجرة الدم في مياه النهر

تخت من حصي الوادي

(٢٠) من قصيدة فدوى طوقان « كلمات إلى وطني » نشرت

في « الآداب » سبتمبر ١٩٦٧ .

(٢١) من قصيدة محمود درويش « جندي يحلم بالزنايق

البيضاء » من ديوان (آخر الليل) .

(٢٢) من ديوان سميح القاسم « سقوط الاقنعة »

نمايلا .. نمايلا .. لها لون النجوم

ولسعة الذكري

وطعم الحب حين يصير أكثر من عباده (٢٣)

فوق هذا الجسر الرهيب الذي صنفته الاجداث وعبثته الدماء ، ستعود قوافل النازحين التي خرجت من الأرض أمام نيران العدو الحاصدة . ستعود رغم فداحة الثمن ، وهي تدرك فداحة هذا الثمن بحق ، ومن ثم لا تتفنى بمجرد عودة حلمية شاحبة كتلك التي امتلات بها قصائد ما قبل النكسة . انها تتفنى بعودة قاسية باهظة الثمن ، لكنها شديدة التائق والوضوح . عودة تعرف الاصرار وتدرك الحقيقة ، فقد انكشفت عن عينيها غشاوات الاقنعة ، عودة لها طعم جديد ، هو طعم عام ١٩٦٧ وليس طعم عام ١٩٤٨ ..

مشيا على الاقدام ،

أو زحفا على الايدي نعود (٢٤)

والشاعر يدرك فداحة هذه العودة ولكنه يؤديها ، وينادي بها ، ويحتضنها بحبه وبشعره . بأسو جراح شعبه خلال هذه العودة القاسية المريرة ويحاول في الوقت نفسه أن يصنع بكلماته جسر العودة ، أو بمعنى أدق أن يشارك في صناعة هذا الجسر وفي بنائه ..

أحبائي ...

برمش العين أفرش درب عودتكم

برمش العين

وأحضن جرحكم ، وألمّ شوك الدرب

بالجنينين

وبالكفتين

أطحن صخرة الصوان بالكفتين

ومن لحمي سابني جسر عودتكم

على الشطتين (٢٥)

هنا يدرك الشاعر ان الشعر وحده لا يصنع جسور العودة ، فيؤكد أنه سيشترك بلحمه في بناء هذا الجسر . سيشترك فيه بالنضال وبحمل السلاح وبالتضحية بكيانه الانساني كله فداء لهذا الجسر المرتجى .. جسر العودة إلى الأرض وإلى الوطن . فهذا الجسر وحده هو البرهان الساطع على الاخلاص للأرض وللوطن ، هو التواصل العميق بين ماضي القضية وبين حاضرها ..

وعلينا كان أن نحارب

سريا من دجاج

ونحس العار حتى العظم منا

انما لا بأس :

هذا لحمنا جسر على البحر الاجاج

لصناف لم نخنها أو تخنا (٢٦)

انه التكفير الجديد عن خطايا الهروب وعن عار التشرد والضياع . وهو التصحيح العميق لخطأ الماضي ، وفي الوقت نفسه هو الطريق الحقيقي إلى المستقبل ، إلى خيوط الصباح الاولى بعدما تكاثفت الظلمة واشتدت جهامتها الحالكة .

(٧) عندما تتحول الكلمات إلى شظايا

قلت ان الشاعر الفلسطيني يدرك ان الشعر وحده لا يستطيع ان ينجز ما يصبو اليه الانسان الفلسطيني الذي ولد في بوتقة النكسة

(٢٣) من قصيدة محمود درويش « الجسر » ، نشرت في

« الطريق » - أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(٢٤) من قصيدة محمود درويش السابقة .

(٢٥) من قصيدة توفيق زياد « جسر العودة » نشرت في

« الطريق » - أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(٢٦) من قصيدة توفيق زياد « أدفنوا أمواتكم وانهمضوا » نشرت

في « الطريق » العدد نفسه .

القاسية .. لان هذا الفلسطيني الجديد بات يعرف بعد ان علمته
(العاصفة) الطريق .. ان ..

كل الذي يقال ،
لغو ،

اذا لم يصنع الرجال (٢٧)

ولذلك فان الشاعر يطمح الى الاسهام ، بكلماته ، في صناعة
هؤلاء الرجال . ان يفجر في أعماقهم الغضب وأن يضع أقدامهم على
بداية الطريق .. بل ويطمح أيضا الى أن يحارب بالكلمات .. ان
تتحول الكلمات بين يديه الى شظايا ، وأن تكون لها فاعلية المدفع وقوة
القتيلة . فالشاعر الحق لا يستطيع أن يفصل عن جراح شعبه ولا
يستطيع الشعر ان يبرد حتى وجوده ذاته ، اذا لم يكن معاناة للواقع
واحساسا عميقا به . ومن ثم فان الشاعر الفلسطيني لا يستطيع أن
يستعير من القاموس كلماته ولكن من الجراح والالام والتعاسات اليومية
العديدة ..

لا بد لي ان أرفض الورد الذي

يأتي من القاموس أو ديوان شعر

ينبت الورد على ساعد فلاح

وفي قبضة عامل

ينبت الورد على جرح مقاتل

وعلى جبهة صخر (٢٨)

من هذه الالام والجراح ينبض شعر المأساة . من سواعد الفلاحين
وقبضات العمال وجراح المقاتلين .. من صلابة الشعب وصموده يولد
شعر المأساة . ولذلك يأتي شاعر الارض المحتلة أن يجرفه تيار الغناء
الاسياني . ويرفض هذا الغناء الممجوج الذي لا يرتفع الى مستوى
معاناة العربي في الارض المحتلة .. بل ويرفض الغناء كلية لانه اشتاق
الى الفعل منذ أمد بعيد .. اشتاق الى أن يفعل شيئا يجهز به على
أيام التفني والتأسي والضياع ..

غناؤك يا غريب الامل طال ، وطالت الايام

وأورقت الربابة في يدك وشاخت الايام

فهل ستظل طول العمر محروقا تناديني ؟!

مع اللحن الفلسطيني ؟

وهل ستظل طول العمر تشخذ عودة هرمت

على سطح من الطين ؟! (٢٩)

ان شاعر ما بعد النكسة يضيّق بأوضاع ما قبل النكسة بكسل
ما فيها من حياة وفن . ويسدرك ان فن ما بعد النكسة لا بد وأن
ينطلق من آفاق جديدة وأن يستقي الهامه من القلوب التي صهرتها
النكسة ، ثم يرتد اليها بعبثاته الشعري ليساعدها على أن تكتشف
واقعا وتغيره بصلابه وجسارة وجد ..

ناخذ أغنياتنا

من قلبك المعذب المصهور

وتحت غمرة القتام والديجور

نعمجتها بالنور والبخور ، والحب والندور

ننفخ فيها قوة الصوان والصخور

ثم نعيدها لقلبك النقي ، قلبك البللور

يا شعبنا المكافح الصبور (٣٠)

هذه القصائد التي يستلهمها الشعر في الارض المحتلة من

(٢٧) من ديوان سميح القاسم « سقوط الافئدة » .

(٢٨) من قصيدة محمود درويش « الورد والقاموس » من

ديوان (آخر الليل) .

(٢٩) من قصيدة سميح القاسم « معنى الربابة » نشرت بمجلة

« المصور » القاهرية في ٢ أغسطس ١٩٦٨ .

(٣٠) من قصيدة فدوى طوقان « أغنيات صغيرة الى الفدائيين »

نشرت في « الآداب » أغسطس ١٩٦٨ .

جراحات ما بعد النكسة .. قصائد لها طعم خاص .. طعم السكر المر
كما يقول توفيق زياد ، لانها قصائد حلوة وقاسية معا . يحاول فيها
الشعر أن يكون حادا كنصل السكين ، حارا كدم انبثق فجأة من طلقة
رصاص في جسد مقاتل . يحاول أن يكون كذلك حتى يستطيع أن
يستنهض همم الصعاليك والساكين . وأن يتوهج بدماء الجراحات
الدامية وصلابة المقاتلين الابطال ليحفظ في النفوس شعلة المقاومة
وليديمي في الوقت نفسه وجه المنتصب ويقض مضجعه ..

وأكتب للصعاليك القصائد

سكرا مرا

وأكتب للساكين

وأغمس ريشتي في قلب قلبي ، في شرايبي

وأكل حائط الفولاذ

أشرب ربح تشرين

وأدمي وجه مفتنصي

بشعر كالمساكين

وان كسر الردى ظهري

وضعت مكانه صوانة من صخر حطين (٣١)

ان حدة الشعر هي أحد وجوه قوة وصلابة المقاتل الفلسطيني
وأحد جذورها معا . ولذلك يطمح الشاعر الفلسطيني دائما الى أن
تكون لكلماته فعالية كبيرة ودور واضح . لا يريد لها أن تكون مجرد
أغنيات يثرثها الناس ساعة الفراغ أو يتذكرونها عند الإضطجاعة
المسترخية قبيل النوم .. لكنه يريد لها فتيلة ومدفعا .. مطرقة وفأسا ..
جزءا هاما من الحياة في قلب الارض المحتلة ..

أيها النسر المقاتل

أيها الاعصار ، يا ناهش أطنان السلاسل

أيها الملوغ من جحريين مرات عديدة

أعطني ازميلك المسكوب في قلب المرارة

أعطني مطرقة .. لغما .. شرارة

علثني أصنع فأسا - من قصيدة (٣٢)

ان الشاعر يريد أن يوقظ الفلسطيني الذي لدغ من نفس الجحريين
مرات عديدة .. من جحر الفدر الصهيوني ومن جحر تركه قضيتته
بأيدي الحكام والمحافل البولية . وهو يريد أيضا أن يحقق هذا الدور
الكبير للفن من خلال محاولته لتحويل أغنياته الى خناجر تستطيع أن
تغرس في قلب العدو . خناجر من الكلمات القاسية القادرة على
انجاب الفدائيين ..

ولكنني لا أغني ككل البلابل

فان السلاسل

تعلمني أن أقاتل .. أقاتل .. أقاتل

لاني احبك أكثر

غنائي خناجر ورد

وصمتي طفولة رعد (٣٣)

هنا يعرف ان الطريق الوحيد للتحرر من ربكة السلاسل الرهيبة
التي تقيد بالاسر خطواته ، هو القتال . ولذلك فانه يحاول أن يجعل
كلماته خناجر من ورود الكلمات تمزق وتفصح .. بل انه يحاول أيضا
أن يعطي صوته معنى جسديدا ، يجعله صمتا ثوريا كصمت البحر
أو كالهدهد الذي يسبق العاصفة . انه طفولة الرعد الذي لن يلبث أن
ينطلق عنيفا وقاسيا ، في كلمات كالخناجر وأفعال كالاساطير .. فهو

(٣١) من قصيدة توفيق زياد « السكر المر » نشرت في

« الطريق » - عدد أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(٣٢) من قصيدة سميح القاسم « طلب انتساب » نشرت في

« الطريق » العدد السابق .

(٣٣) من قصيدة محمود درويش « أحبك أكثر » من ديوان

(آخر الليل) .

يضيق كثيراً بالكلمات برغم قدرته على تفجيرها بالشر . ومن ثم يندفع كالعاصفة يقاتل .. ويقاوم .. ويقاوم ..

أجلس كي أكتب !

ماذا أكتب ؟ .. ما جدوى القول ؟

يا بلدي .. يا أهلي .. يا شعبي

ما أحقر أن يجلس إنسان كي يكتب في هذا اليوم

هل أحمي بلدي بالكلمة

هل أنفذ بلدي بالكلمة

كل الكلمات اليوم

ملح لا يورق أو يزهر في هذا الليل (٢٤)

انه ينكر الاستسلام للتغني فليس هذا أوان الكلمات . لقد شبع الفلسطيني كلاماً حتى التخمة . لكنه لم يعثر على فعل واحد ، طووال عشرين عاماً . ومن ثم فانه يعتقد ان الاوان قد آن ليبدل بالفعل الكلمات ..

آن لي أن أبدل اللفظة بالفعل ، وأن

لي أن أثبت حبي للثرى والقبّره

فالعصا تفتقر القيثارة في هذا الزمان

وأنا أصغر في المرأة ، مذ لاحت ورثي شجرة (٢٥)

هكذا بالكلمات يضيق شاعرنا . يريد أن يستفيض عنها بفعل قوي مدمدم هادر .. ولذلك فانه يضيق أيضاً بصمته الهادئ المتخاذل . انه يريد صمناً مدوياً .. صمناً قاسياً ينثر الرعب في قلب العدو كصمت البحر وكصمت المقابر ..

ليتني أعرف سر الشجرة

ليتني أدفن كل الكلمات الميتة

ليت لي قوة صمت المقبره

يا يدا تعزف ! يا للعار ، خمسين وتر

ليتني أكتب بالمنجل تاريخي

وبالفأس حياتي .. وجناح القبّره (٢٦)

هكذا بالكلمات يضيق شاعرنا . يضيق بها ألف مرة . لكنه ما يلبث ثانية ان يدرك ان شعر الفلسطيني في الارض المحتلة ضرب من القتال . انه شعلة كبيرة يتحلق حولها العرب . تؤكد فيهم عروبتهم وتوقد جذوة الصلابة والبسالة في أعماقهم . انها هي التي احتفظت بجوهرهم صافياً وقوياً طوال سنوات الاضطهاد الرهيبة منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم . هي التي حافظت على جذوة الحياة في أعماقهم برغم محاولات اليهود المستمرة الدائبة لتفتيتها وتمزيقها فيهم .. هي التي حافظت فيهم على ما جاءت العاصفة ففجرت بالشر ..

لم تكن قبل حزيران كأفراخ الحمام

ولذا لم يتفتت حبنا بين السلاسل

نحن يا أختاه من عشرين عام

نحن لا نكتب أشعاراً ، ولكننا نقاتل (٢٧)

هكذا تحول الشعر الى خنجر ، الى سلاح يقاتل به الشعب الفلسطيني كما يقاتل « بفتح » و « بالجهبة الشعبية » لانه تفجير وسط الجراح الدامية التي خلفتها النكسة ، فكان له تأثير المدفع وقوة القنبلة .. ولان الشاعر توحد بالقداني ، كتب شعره بالسكاكين

(٢٤) من قصيدة فدوى طوقان « الفدائي والارض » نشرت في « الآداب » مارس ١٩٦٨ .

(٢٥) من قصيدة محمود درويش « يوميات جرح فلسطيني » نشرت في « الآداب » يوليو ١٩٦٨ .

(٢٦) من قصيدة محمود درويش « معنى الدم » من ديوان « آخر الليل » .

(٢٧) من قصيدة محمود درويش « يوميات جرح فلسطيني » نشرت في « الآداب » يوليو ١٩٦٨ .

على جدران الخنادق ، وبحسد السونكي فوق روايي طوباس عندما اشتعلت فيها نيران المقاومة ، وبالشظايا في ساحات التدريب لدى حروب العصابات كتب ..

جعلوا جرحي دوا

ولذا

فانا أكتب شعري بشظيته ! (٢٨)

وعندما كتب الشعر بالشظايا أصبح هو الآخر شظية تخترق قلب العدو وتقض مضجعه . ومن ثم أدرك العدو خطورته الى الحد الذي قال فيه موسى دايان عن قصاد فدوى طوقان « ان كل قصيدة من هذه القصائد تصنع عشرين فدائياً » . وقصائد شعراء الارض المحتلة تصنع المقاومة بحق . لانها تساعد الانسان الفلسطيني على رؤية واقعه وفهمه بصورة تصيح معها الثورة الفدائية هي الحل الوحيد المطروح لعلاج المسألة الفلسطينية . ولانها تقوم بهذا الدور الكبير فانها تتعرض للسجن والنفي والمصادرة .. للصراخ المسعور من العدو ..

اسجنوا هذي القصيدة

غرفة التوقيف خير ، لهوء الامن

خير من نشيد .. وجريدة (٢٩)

لكن السجن يزيد القصائد اشتعالاً ، لا يقضي عليها بل يؤجج نيرانها فتندفع وسط الجموع .. ان مقاومة السلطة الاسرائيلية لهذه القصائد بهذه الصورة العنيفة والضارية تؤكد للشاعر انه يسير في الطريق الصحيح .. فيتمادى في الفناء ، وهو يعرف ان مقاومة شعره من السلطات هي في الواقع أكبر دعاية له ، وهي أيضاً أسرع الطسرق لانتشاره ..

كانت الاغنية الزرقاء فكرة

حاول السلطان أن يطمسها

فغدت ميلاد جمره !

كانت الاغنية الحمراء جمره

حاول السلطان أن يحبسها

فاذا بالنار ثورة

كان صوت الدم مغموساً بلون العاصفة

وحصى الميدان أفواه جروح راعفة

وأنا أضحك مفتوناً بميلاد الرياح

عندما قاومني السلطان ،

أسكت بمفتاح الصباح (٤٠)

هكذا استطاع الشعر أن يقض مضاجع السلطان . وعندما طورد وسجن وعذب ادرك انه قد أمسك حقاً بمفتاح الصباح ، واند قد اضطلع بدوره ببسالة وصدق ، فأخذ يضحك مزهواً فرحاً لميلاد الرياح التي ستكنس الشر والعسف والاحتلال . والتي تستدعي معها بشائر القد الواعد بالسعادة والهدوء والامان ، بعدما طال العذاب والضياع والشتات .

(٨) ضرورة البقاء فوق ثرى الوطن

عندما أمسك الشعر بمفتاح الصباح ، وأصبح سلاحاً حقيقياً في معركة البقاء التي يعيشها الشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة ، انتصحت امام الشاعر الرؤية ، فبدأ يعالج أكثر القضايا الحادا على هذه اللحظة الحضارية التي يعيشها بعد النكسة . وكانت ضرورة البقاء فوق الارض المحتلة في مقدمة قضايا هذه الخطة . لان ما يريده المستعمر الاسرائيلي ليس اكثر من رفعة الارض الخالية . والهرب أمام عنفه وضارته ليس الا تحقيقاً سريعاً لمخطته التوسعي . ومن هنا كانت

(٢٨) من قصيدة سمح القاسم « شظايا » نشرت في مجلة

« الطريق » البيروتية ، اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(٢٩) ، (٤٠) من قصيدة محمود درويش « الاغنية

والسلطان » من ديوان « آخر الليل » .

.. البقاء برغم الجراحات والآلام والاحزان .. البقاء برغم المسف
والعذاب والمذلة ..

سابقى رغم اذلاي
وجرحي والاسى الممقوت
هنا في حصن اجدادي
وارضي والسنى الموروث
سابقى رغم اذلاي ولن ارحل
هنا جذري وتاريخي وقصة جبي الاول
هنا وطني
فمت في حقدك المغموس بالعار
ولن ارحل (٤٤)

ان رفض الفلسطيني للرحيل من ارض الوطن هو اكبر العوامل التي
تفجر حقد الاسرائيلي عليه . انه ينقض الاساس الفكري انذي قامت عليه
اسرائيل منذ كانت فكرة جنينية دعا اليها هيرتزل في مؤنر بال الاول
عام ١٨٩٧ « فلسطين وطن بلا سكان ونحن شعب بلا وطن » ان بقاء
العرب في الارض المحتلة يقوض هذه الفكرة من جذورها ، لانه يؤكد ان
فلسطين وطن له سكانه المتشبهون به الباقون فوق تراه . ان هذا البقاء
في الواقع هو الشيء الرئيسي الذي يقوض استعمار اسرائيل
الاستيطاني من الداخل . انه ينهش البناء المزيف الذي تريد اسرائيل
ان تقيم فوق ارض خالية تركها أهلها ورحلوا . ومن هنا يأتي الاصرار
على البقاء كغمة رئيسية مشتركة بين كل شعراء الارض المحتلة ..
لا يشيع احدهم من تكرارها . فهسي جوهر القضية الفلسطينية ..
قضية ان تكون هناك فلسطين او لا تكون ..

كالسنديان هنا سنبقى كالصخور
كعرانس الزيتون فوق ربي بلادي كالنهود
كحمايم البرية الخضراء انا سوف نخفق
فوق ارضك يا بلادي كالنصور
لولاك هل كنا سوى جثث
ولولانا ، اكنت سوى قبور
كالسنديان .. هنا سنبقى كالصخور (٤٥)

ان الفلسطيني الذي يترك ارضه يحكم على نفسه بالموت . بأن
يكون اقل اخلاصا للوطن من الصخور الباقية ومن الاشجار العتيقة التي
لا تستطيع الحياة خارج تراه . ان السنديان اذا نزعتم من ارضها الام
تموت . وكذلك الانسان الذي ينزع جذوره من ارض بلاده يموت هو
الاخر ..

ونحن غريبان ، كنا هنا
قريبين كنا من الموت
كنا بعيدين عن بيتنا (٤٦)

فالاغتراب نوع من الموت . نوع من الانحراف عن الجوهر الانساني،
لان جوهر الانسان لا يتحقق الا في الوطن .. عندما يحس بالحب وبالام
وبالتحقق . اما عندما يفتقد الانسان كل هذا بالفربة فانه يقترب حقيقة
من الموت .. من الموت الحقيقي والموت المعنوي .. واذا رضي
الفلسطيني باللجوء والفربة فانه يحكم على نفسه بالموت .. بان يصير
جثة حية في مخيمات اللاجئين ، حيث يمنهن وحيث يقتل فيه كل يوم
الانسان .. وحتى لو استطاع الفلسطيني ان يحقق ذاته - بالمفهوم
البرجوازي - خارج الارض الفلسطينية ، فانه سيظل ابدا جثة متحركة
ضيعت جذورها .. بهذا الفهم يصرخ سميح القاسم وهو يرد على

(٤٤) من قصيدة فتحي قاسم (هنا جذري) نشرت بمجلة (الطريق)
اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨
(٤٥) من قصيدة سالم جبران (كالسنديان) نشر بمجلة (الطريق)
اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨
(٤٦) من قصيدة محمود درويش (غريبان) نشرت بمجلة (الطريق)
اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨

ضرورة البقاء والمقاومة هي أكثر القضايا الحاحا وتطلبا للمعالجة بيسد
النكسة ، بعد أن عبر النهر السى الاردن هربا أكثر من نصف مليون
فلسطيني في ستة أيام ، ورفضت اسرائيل بعنف أن تسمح لهم بالعودة
الى اراضيهم من جديد . بعد هذه الواقعة الدامية التي أخذت تتجدد
كل يوم خلال أفواج النازحين عن ثرى الوطن . أخذ الشاعر يصرخ مطالبيا
بضرورة البقاء وزرع الارض الفاما تحت أقدم العدو حتى يضطر هو
مرغما الى الهرب منها .. ففي هذا الزمان لا بد - كما يقول أرستو
غيغارا - من مواجهة العنف بالعنف . اما الهروب من هذه المواجهة
فليس الا نوعا من الاستخذاء والهزيمة .. ومن هنا يدعو الشاعر
الى ضرورة أن نزرع ..

الارض خناجر
تحت الاقدام الوحشية
والارض مغابر
للالحام الهمجية (٤١)

وحتى يتحقق هذا المطلب الكبير فانه يستلزم بناءة ان يظل
الفلسطيني في ارضه .. وان يتشبث بالبقاء فوقها مهما كانت الصعاب
ومهما كان الثمن ..

سأظل هنا
في بيت مبني من أحجار
في كوخ مصنوع من أغصان الأشجار
سأظل هنا أمسك جرحي بيد
وألوح بالأخرى ..
لربيع يحمل لبلادي
دفع الشمس وبقاات الأزهار (٤٢)

فالبقاء فوق ثرى الوطن هو الحياة في ذاتها برغم كل الآلام وكسل
الجراحات ، برغم ان الفلسطيني يجبر على ان يمسك جراحه بيسد ،
ويلوح بالأخرى لاشعة الامل القادمة مع جحافل المقاومة . فبقاؤه هو
امل القضية الكبير . ومن ثم عليه ان يتحمل في سبيل هذا البقاء كل
شيء : الصنف والجرح والاحزان . لان ترك هذه الارض هو النذل بعينه،
هو الضياع والموت والبقاء فوقها هو حاضر القضية ومستقبلها .. هكذا
يؤكد الشاعر مواسيا تلك الام العظيمة التي هجرها ابنها بعد ما ضاق
بمرارة الحياة فوق الارض المحتلة ..

لم تفهمي وصغيرك الغالي
لم يدرك ان قميصه البالي
ما دام يخفق في رياح الحزن والشده
ستظل تخفق راية العوده
فخذني اخاه وأفهميه
ان المذلة ان يبيع ثرى أبيه
وأفهميه

ان اختلاج الروح في البذره
أقوى من الصخره
وجذورنا في رحم هذي الارض ممتده
وقميصنا البالي
ما دام يخفق في رياح الحزن والشده
ستظل تخفق راية العوده
ستظل تخفق راية العوده (٤٣)

هكذا يؤكد الشاعر ان البقاء هو الطريق الوحيد الى العوده والى
غد القضية ، وان الهرب اجهاز على هذا الغد الذي سيصنع العوده
وحياته له . ومن ثم على الام ان تزرع في اعماق صغيرها ضرورة البقاء

(٤١) و (٤٢) من قصيدة سالم جبران « بقاء » نشرت بمجلة
« الطريق » اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨
(٤٣) من قصيدة سميح القاسم (قميصنا البالي) من ديوانه
(دخان البراكين) .

رسالة رفيق صباح الفلسطيني الذي يعيش في بيروت ، والذي حقق كل شيء .. الدرجة الجامعية والسيارة والصديقة الأجنبية الجميلة .. ولكنه في الوقت نفسه فقد كل شيء .. انه يموت هناك في القرية دونما هدف ..

رسالتك التي اجتازت الي الليل والاسلاك
رسالتك التي حطت على بابي ، جناح ملاك
أتعلم؟! .. حين فضتها يداي تنفضت اشواك
على وجهي وفي قلبي
أخي الغالي !!
اليك هناك في بيروت
اليك هناك حيث تموت
كزنبقة بلا جذر
كنهر ضيع المنبع
كأغنية بلا مطلع
كعاصفة بلا عمر
اليك هناك حيث تموت كالشمس الخريفية
.... باقافن حريرية (٤٧)

ان هذا الفلسطيني الذي يعيش خارج فلسطين ، والذي يموت كل يوم ، لانه بدد حياته كنهر ناضب ضيع منبعه . وكعاصفة بلا عمر ولا تاريخ . ان هذا الفلسطيني هو عار القضية الفلسطينية ولعننتها معا .. هكذا يراه الشاعر الفاضل الشاعر .. سميح القاسم .. فيصرخ فيه ..
اليك هناك يا جرحي ويا عاري
ويا ساكب ماء الوجه في ناري
اليك .. اليك ..
من قلبي المقاوم جانما عاري
تحياتي واشواقي
ولعنة بيتك الباقي (٤٨)

انه عار القضية الفلسطينية ولعننتها . انه شريك اليهود في القضاء على فلسطين الحبيبة لانه يسر لهم بهروبه الطريق . واذا كان لمثل هذا الفلسطيني ان يتعزى واهما بانه قد حقق ذاته ، وانه قد اكد كفاءة الفلسطيني وذكاء الفلسطيني ومهارة الفلسطيني ، فليس هذا سوى وهم وخداع . فالغالبية العظمى ممن الذين تركوا الارض ، يتجرعون مرارة اللجوء والتشريد دون ان يكون لعذاباتهم المعنى المتساوق مع فداحتها . ان عذابات العرب في الارض المحتلة تكتسب معنى مضاعفا ، وكذلك تكتسب نضحياتهم معنى . اما عذابات اللاجئين فانها تضيق وسط مسارب مجردة من العواطف الكاذبة والاشفاق الدولي البقيض .. تضيق تحت ظلال الصليب الاحمر الذي يبارك الامم وينزع عنها خصوصيتها .. انه يحولها الى آلام تجريدية . فهو يشفق على الفلسطيني وعلى اليهودي وعلى ضحايا الحرب الاهلية في نيجيريا بنفس الاسلوب . ان آلام الفلسطيني وعذاباته في مخيمات اللاجئين تفقد طعمها الخاص ، ومن ثم تفقد دورها الثوري الفعال ..

عجنوا بالوحدل خبز
ورموشي بالغبار
أخذوا مني حصاني الخشبي
جملوني احمال الانتفال عن ظهر ابي
جملوني احمال الليلة عام
٥٤ .. من فجرني في لحظة جدول نار
٥٥ .. من يسلبني طعم الحمام
تحت اعلام الصليب الاحمر (٤٩)

(٤٧) و (٤٨) من قصيدة سميح القاسم (اليك هناك حيث تموت) نشرت بملحق (الانوار) الاسبوعي الصادر في ٣٠ يونيو ١٩٦٨ .
(٤٩) من قصيدة محمود درويش (اغنية ساذجة عمن الصليب الاحمر) من ديوانه « آخر الليل » .

هكذا يعاني الفلسطيني مرارة اللجوء القاسية . وحتى يستطيع ان يمنح هذه المرارة معنى فان عليه ان يحولها الى تمرد . الى وجه آخر من وجوه البقاء في فلسطين . وهو السعي الى العودة بالاسلوب الذي عمده جيفارا بدمه .. بالعنف .. بالتمرد على الشفقة المفلقة بالاوراق الملونة والتي تقدمها مكاتب الصليب الاحمر الدولية .. عليه ان يشارك في صنع غد العودة بعيدا عن الاغنيات الحاملة المكتفية بالترنم بالعودة في الاناشيد وعلى صفحات الجرائد . عليه ان يكون وجهها آخر للفلسطيني القابع فوق الارض بجلد وصلابة . فهذا وحده هو الفلسطيني الحق الجدير بشرف الانتماء الى هذا الشعب الذي يحمل صليب الانسان في القرن العشرين ويسجل لعنته .. وعليه ان يبقى وان يضرب في الارض جنوره رغم هذه العذابات وتلك الجراح الدامية . وان يدافع عن وجوده وبقاؤه بأخر مسا يملك من سلاح .. باسنانه ذاتها لسو استعدي الامر ...

باسناني ساحمي كل شبر من ثرى وطني
باسناني .. ولن أرضى بديلا عنه
لو علقت من شريان شرياني
أنا باق ، اسير محبتي لسياج داري
للندی ... للزنبق الحاني
أنا باق .. ولن تقوى علي جميع صلباني
أنا باق .. لاخذكم .. وآخذكم ..
وأخذكم بأحضاني
باسناني .. ساحمي كل شبر من
ثرى وطني .. باسناني (٥٠)

ان البقاء برغم كل الصعاب هو القضية الاساسية والمصيرية في فلسطين . فبلاد كثيرة احتلت وعانت من ويلات الغزو والهزيمة . لكن أيا منها لم يتركها أهلها خالية يرتع فيها الغازي ويستمتع بالحياة فوقها في هدوء . فبقاء اصحاب الارض الاصلية كان دائما العنصر الجوهرية في أي مقاومة للغزو والاحتلال . لان مجرد البقاء ، مجرد الوجود الصامت الراض ، مقاومة هائلة فعالة قادرة على اثناء الاحتلال والاجهاز على كل جبروته وتسلطه . وحتى لو ادى هذا البقاء الى الموت تحت وطأة العنف والاضطراب والارهاب . فان هذا الموت هو الحياة بذاتها . لانه مريت له معنى .. موت في سبيل شيء ومن أجل شيء ..

كفاني اموت عليها وادفن فيها
وتحت نراها اذوب واقني
وابعت عشبا على أرضها
وابعت زهرة
تعيت بها كف طفل نمته بلادي
كفاني اظل بحضن بلادي
تربا .. وعشبا .. وزهرة (٥١)

فوق ثرى الوطن يصبح لحياة الفلسطيني معنى . بل ان موته ايضا فوق هذا الثرى يكتسب كذلك معنى . لانه سيخصب هذه الارض . وسيصنع ترانا من الضحايا الذين يستصرخون الهمم طلبا للثأر . ولانه سيساهم في تبرير الحياة فوق هذه الارض المليئة بالاشواك للاجيال القادمة . ولانه اخيرا سيؤكد ان الفلسطيني يستحق ان يسترد بلاده لانه بذل من أجلها الكثير . لانه عاش فوقها ومات في سبيلها . لذلك فان حلم الفلسطينيين الدائم . الباقي منهم فوق ارض الوطن والمحترق بالاعتراب بعيدا عنها ، هو ان يموت اذ يموت فوق هذا الثرى الحبيب ..
يا شجر المرجان عرشت اغصانه
على جوانب الطريق

(٥٠) من قصيدة توفيق زياد (باسناني) نشرت في مجلة (الطريق) عدد اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .
(٥١) من قصيدة فدوى طوفان (اغنيات صغيرة الى الفدائيين) نشرت في (الاداب) اغسطس ١٩٦٨ .

اعشق موتي في مواسم الفداء والعتاء

اعشق موتي تحت ظلك المخرج الفریق (٥٢)

اذن لا حياة الا فوق الارض الفلسطينية ولا موت الا عليها .. ففي هذه الارض تضرب جذور الفلسطيني الى آلاف السنين . وفيها يكتب وجوده معناه وقيمه . وفيها أيضا يكتب موته معناه . لانه سيساهم في صنع غدا ، سيموت ليحييها ..

خذي عيني وانصبي وناديني

حوار القاتل المقتول في عصبي

يجرني من الايام والشكوى

ويسقيني ..

على مهل عصير الريح واللب

وتفتلي ... لايحيها

فلسطيني !! (٥٣)

فمن رماده ستنهض فلسطين . ستبعث كادونيس من جديد ، ستنبف وترفع هامتها في وجه الريح .. هكذا بموته فوق ترابها يمنحها الحياة . فما بالك بحياته فوق هذا التراب . انه بذلك يمنحها حياة مضاعفة . ومن ثم فعليه ان يبقى . يدحض دعاوي المتشائمين ويقاوم علل ميرري الهرب ومفلسفي اللجوء .. عليه ان يبقى ويحاول ان يساعد شعبه على البقاء وعلى الحياة مع الصعاب والمحن ...

ساظل فوق ترابك المذبوح يا وطني

مع الزمار ، انشد للربيع

واقول للباكين والمتشائمين

ان الشتاء يموت فابتسموا

ولا تتخاذلوا تحت الدموع

هانوا اياديكم ، فمعركة البقاء تريدكم

جندا ... ومعركة الرجوع (٥٤)

هكذا يكتب البقاء عشرات القيم والدلالات . الى الحد الذي يصبح فيه مفخرة يعتز بها الشاعر فيتغنى بمجرد هذا البقاء . حتى ولو كان بقاء هادئا لا مذلة فيه ولا هوان . ان هذا البقاء مجرد فسي حد ذاته ، له قيمته الكبرى لانه وحده الذي يصنع حاضر القضية الايجابي ببساطته الاسرة وشرعيته ...

اقول لكم :

انا ما بعث صحبتنا

ولا دنست احلام الصبا الحلوة

ولا مزقت اشرة نسجناها

ولا شئت افكارا فلقناها

انا ما رمت الا ان نعيش العمر اعمارا

وان نبني هنا ..

هنا في ارض نكبتنا ، لنا دارا (٥٥)

فالبقاء في الارض اخلاص لثراث طويل من الاحلام المشتركة والذكريات المشتركة والافكار المشتركة . وهو فسي الواقع ضرورة لان الفلسطيني لا يستطيع ان يصطحب هذه الاشياء الجوهرية ، التي تصنع جذر الانسان ، معه في غربته . ومن ثم عليه ان يظل هو بجوارها .. ان يبقى ليعيش معها فيهب حياته الطعم والمعنى ..

آه يا جرحي المكابر

(٥٢) من قصيدة فدوى طوقان (اغنيات صغيرة الى الفدائيين)

نشرت في (الآداب) أغسطس ١٩٦٨

(٥٣) من قصيدة محمود درويش (خلف الاسلاك) نشرت في مجلة

(الطريق) العدد المشار اليه .

(٥٤) من قصيدة سالم جبران (سعيا للربيع) نشرت في (الطريق)

العدد المشار اليه سابقا .

(٥٥) من قصيدة طارق عون اللسه (الرسالة الاخيرة) نشرت

بمجلة (الطريق) .

وطني ليس حقيبة

وانا لست مسافر

انني العاشق ، والارض حبيبة (٥٦)

ليس باستطاعة الفلسطيني ان يصطحب معه جراحاته ولا ارضه الى حيثما ارتحل . ولكن عليه ان يعيشها فوق ثرى الوطن وان يحولها الى منارات تضيء الطريق للاجيال القادمة . والى اشعار يتغنى بها الباقون ليتشبثوا بالبقاء برغم كل شيء ، برغم ثانوية الدور الذي يقوم به العربي فوق الارض المحتلة . وبرغم الظروف القاسية التي تفرض عليه اوضاعا طبقية معينة . وبرغم حرب الابادة الاسرائيلية . برغم كل هذا يبقى العربي في الارض المحتلة قويا ومتألقا وشجاعا . يرفع بمجرد بقائه راية الاحتجاج على هذا الوجود الصهيوني الكئيب .. ويهدم بمجرد بقائه ذاته ، اسطورة هذا الوجود المزعوم ...

هنا على صدوركم باقون كالجدار

ننظف الصحون في الحانات

ونملا الكنوس للسادات

ونمسح البلاط في المطابخ السوداء

حتى نسل لقمة الصغار

من بين انيابكم الزرقاء

هنا على صدوركم باقون كالجدار

نجوع .. نعري .. نتحدى

ننشد الاشعار

ونملا الشوارع الصخاب بالمظاهرات

ونملا السجون كبرياء

ونصنع الاطفال جيلا نائرا وراء جيل

... اذا عطشنا ، نعصر الصغرا

وناكل التراب ان جعنا ، ولا نرحل

يا جنرنا الحي تشبث

واضربي في القاع يا اصول (٥٧)

هكذا أصبحت ضرورة البقاء فوق ثرى الوطن هي القضية الاساسية التي تطرحها الظروف الجديدة التي تعيشها الماساة بعد مرورها بهذه الانعطافة الكيانية الكبرى بعيد حزيران . ومن ثم الح عليها كل شعراء الارض المحتلة هذا الالحاح الشديد المتكرر . لانهم يدركون اهمية هذا البقاء ويؤمنون بضرورته .

(٩) الصمود والمقاومة .. طريق الخلاص

بعد ان ازاحت النكسة الاقنعة واعادت طرح القضايا من جديد . اخذت هذه القضايا الجديدة التي نضجت ابعادها على نيران الهزيمة المريرة تطرح بنفسها اسلوب العلاج .. فبعد ان اصبحت القضية قضية حياة او موت ، وليس مجرد قضية نارية تافهة ، وبعد ان اخذت العودة هذا الشكل الدموي الجديد المليء بالبنف والضراوة ، وبعد ان أصبح البقاء في الارض ضرورة جوهرية خاصة وقد وقعت كسل الارض الفلسطينية في برائن الاحتلال . بعد كل هذه التحولات الجديدة اخذت القضية تطرح بنفسها اسلوبها الجديد للعلاج ، الاسلوب الذي ولد مع (العاصفة) والذي نما بعدها بشكل واسع من خلال المنظمات الفدائية العديدة التي ساهمت بفعالية فسي بلورة الاسلوب النضالي كشكل للمواجهة الجديدة . اسلوب الحرب الشعبية الذي اعتمدت عليه تلك المنظمات الفدائية الفلسطينية التي تقودها « فتح » والتي تضم بين جناتها عددا كبيرا من المنظمات الفعالة مثل (الجبهة الشعبية) و (قوات التحرير الشعبية) وغير ذلك من المنظمات التي حاولت ان

(٥٦) من قصيدة محمود درويش (يوميات جرح فلسطيني) نشرت

في (الآداب) يوليو ١٩٦٨ .

(٥٧) من قصيدة توفيق زياد (من وراء القضبان) من ديوانه الاخير

(أشد على ايديكم) .

هكذا تغيرت لغة الفلسطيني ، وتغير التحدي القديم ، تحرر من الشكوى ومن الاستجداء والركون الى القرارات الدولية . ونهض وانقا من ان غد قضيتته لن يصنع بغير التضحيات والدماء التي تقسل عمار سنوات الانتظار الطويلة والجوء .. ابتلع دمومه القديمة وايقن من بزوغ الفجر .. فصاح ..

دمعتي في الحلق يا أخت ، وفي عيني نار
وتحررت من الشكوى على باب الخليفة
كل من ماتوا ، ومن سوف يموتون على باب النهار
عانقوني ، صنعوا مني قذيفة (٦١)

هكذا من تراث الضحايا الطويل تولد المقاومة . وهي مقاومة ضاربة لان جذورها تلغ في دماء عشرين عاما من النذل والمهانة والجراح .. مقاومة لا تخاف من الموت بل تستهيه ، فقد عاشت في المخيمات ما هو اكثر بشاعة وضراوة من هذا الموت البسيط . عاشت الضياع والموت في كل لحظة آلاف المرات ، ومن ثم فهي تستهين بهذا الموت البطولي ، بل ترحب به ، لانه الموت الوحيد الذي يكتسب معنى وسط هذه الترويعات العديدة على لحن الموت الكئيب ..

يا ألف هلا بالموت
واحترق النجم الهاوي ومرق
عبر الربوات ... برقا مشتعل الصوت
زارعا الاشعاع الحي على الربوات
في أرض لن يقهرها الموت
ابدا لن يقهرها الموت (٦٢)

هذا الترحيب الأساوي بالموت يعانقه وعي شديد بوعورة الدرب وبضرورة تقديم قرابين الضحايا في هيكل النصر .. قرابين كثيرة على درب طويلة شقية ، درب تجتاز في طريقها العنف وابواب الليل الجهنمية .. لكنها تعبر كل هذا على ضوء مشاعل من دماء الشهداء والضحايا ..

لا تحزني اذا سقطت قبل موعدني
فدربنا طويلة شقيه
ودون موعد الوصول ترتمي على المدى
شواطئ الليل الجهنمية
تعبها على مشاعل الدماء
لكي يجيء بعدنا الفرح (٦٣)

فهذه التضحيات الكبيرة هي الطريق الوحيد للمخلص . هي هي الشيء الوحيد الذي يستطيع ان يوقف فلسطين من جديد على قدميها ، وان يرد لها الحياة .. ف :

من حزننا الكبير من
تدبق الدماء في جدراننا
من اختلاج الموت والحياة
ستسعث الحياة فيك من جديد
يا جرحنا العميق أنت ، يا عذابنا
يا حينا الوحيد .. (٦٤)

هذه التضحيات الكبيرة التي تقدمها (فتح) والمنظمات الفدائية الاخرى هي وحدها التي سترد الى فلسطين الحياة ، وترد الى الفلسطيني القدرة على الفرح وعلى ان تتفجر في أعماقه الاغبيات ،

(٦١) من قصيدة محمود درويش (يوميات جرح فلسطيني) نشرت في (الآداب) .

(٦٢) من قصيدة فدوى طوقان (الفدائي والارض) نشرت في (الآداب) مارس ١٩٦٨ .

(٦٣) من قصيدة فدوى طوقان « الفدائي والارض » نشرت في « الآداب » .

(٦٤) من قصيدة فدوى طوقان « كلمات الى وطني » نشرت في « الآداب » .

تزرع الارض خناجر تحت اقدام العدو .. ان تفقده الامان والاطمئنان والاحساس بالنصر ، والزهو بتحقيق الحلم الموعود . هذا الاسلوب الجديد الذي ولد وسط نيران النكسة ونضج في اتونها . لسم يعد قضية فلسطين الى الفلسطيني ، بعد ان ظلت تجسار رائج تبادل الحكومات اللعب بها والفلسطيني آخر من يكون له رأي فيها ، فحسب . ولكنه أيضا وضع القضية في وضعها الصحيح كقضية شعب وقضية تحرر . قضية نضال شعبي لا قضية مناقشات سياسية ومداولات دولية في اروقة الامم المتحدة وردهاات مجلس الامن . لقد ايقن الفلسطيني ان العالم كله قد شارك - بعمد او بمحض المصادفة - في تكريس مأساته . ومن ثم بدأ يبذل كل هذه القرارات التي لم تعد تساوي قيمة الاوراق التي كتبت عليها ولا الحبر الذي كتبت به . فهذه القرارات قد عاصرت سنوات المأساة العشرين بكل جراحاتها الدامية ، ولم تكن في الواقع سوى تكريس لهذه الجراح وسبب في مزيد من الآلام . هذه القرارات التي لم تصنع له طوال عشرين عاما ، تحمل فيها - كأيوب - وزر جريمة لم يرتكبها ، هي التي أفقدته الثقة في هذه المحافل الدولية ، فادار لقراراتها ظهره ومضى يصنع بنفسه فجر قضيتته ..

يا مجلس الامن القديم
صوتي يجيئك زهرة حمراء من حفل الجريمة
فالى اللقاء .. الى اللقاء
يا مجلس الامن القديم
اراك ... في القدس القديمة (٥٨)

هكذا تيقن الفلسطيني من لا جدوى قرارات على ورق . ومن انه لا مناص من حمل السلاح والنهوض للمقاومة . اذن تمرد على جراحاتك يا صديقي ، وخذ من عنفها العزم والتصميم ، فلا قيمة لجرح لا يشعل في الليل الحرائق ، ولا يحمل البرء للجسد الذي عانى من الآمه ..

جبهتي لا تحول الظل وظلي لا أراه
وأنا .. أبصق في الجرح الذي
لا يشعل الليل جباه
خبيء الدمعة للعيد ، فلن نبكي سوى من فرح
ولنسم الموت في الساحة
عرسا وحياه (٥٩)

هكذا يحرق الفلسطيني مراكيه القديمة وينهض ويستمد من جراحه العزم والقوة والصلابة . موقنا بان هذا وحده هو الطريق الذي يمكنه ان يزرع وسط غابات الاحزان والجراح أجنة الفرح . لذلك فهو يريد ان يسمع العالم كله هذا الصوت الجديد وتلك اللغة الجديدة . فالعالم لم يسمع من الفلسطيني طوال الايام العشرين الماضية سوى صوت اللاجيء ، ولم يعرف من تحدياته سوى تحدي اليد الممتدة تريد ان تأخذ ثمن عذاباتها خبزا وقروشاً ، تكفر بها الانسانية عن جرماتها الكبرى ، ويدفع بها الانسان عن نفسه بشاعة هذا المصير .. لكن الفلسطيني اليوم يريد ان يسمع العالم لغة جديدة ..

أيها العالم صارت رثتي
كبير حداد حزين
واستحالت لفتي
جمرة .. سوطا .. فدائيا .. كمين
أيها العالم ، هل تسمع ؟
صارت زنيقتاني ،
زنيقتاني - آه - أبواقا تدوي
لاحتراقي في خيام اللاجئين
وأنا كنت مربوها .. قرونا وقرون ! (٦٥)

(٥٨) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة)

(٥٩) من قصيدة محمود درويش (يوميات جرح فلسطيني) نشرت

في (الآداب) .

(٦٥) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة) .

اغنيات غير تلك الاغنيات المستجدة البليدة ، لانها اغنيات نشوانة
بخمر النصر ، تعرف انها تستحقه لانها دفعت في سبيله أغلى ثمن ..
فاذا كنت أغني للفرح ...
خلف أجفان العيون الخائفة
فلأن العاصفة
وعدتني بنبيذ وبانخاب جديده
وباقواس فرح
ولأن العاصفة ،
كنست صوت العصفير البليده
والفصون المستعاره
عن جذوع الشجيرات الواقفه (٦٥)

هكذا يعرف الفلسطيني ان ما يقدمه لمنظمات الفداء لا يضع
هباء ، فهذه المنظمات هي القادرة على صنع غد القضية الفلسطينية
وعلى صياغة مستقبلها . لذلك يحس الشاعرا الفلسطيني في الارض
المحتلة بأن طريقه الوحيد الى الخلاص هو الصمود واستمرار المقاومة
.. فالشرارة التي اندلعت ذات يوم من عام ١٩٦٥ ليس من حق أحد
ان يوقفها ، لانها استمرت موقدة منذ ذلك اليوم بدماء الضحايا ..
هذه الدماء الزكية التي استحالحت الى وصية من دم تستفيث مطالبة
باستمرار المقاومة ، حتى لا تزهى بايقافها أرواح هؤلاء الضحايا ولا
تهدر دماؤهم ..

هي لا تريد ، ولا تعيد
رثاؤنا هي لا تسام

فوصية الدم تستفيث بأن نقاوم (٦٦)

هذه المقاومة الدامية هي التي تعطي دماء الضحايا معناها
ودورها . وهي التي تفجر أناشيد الشعراء بالفضب والصمود ، لتفجر
في أعماق الفلسطيني الحقد والمقاومة ، فالفسن الحقيقي عندما يوجج
في الأعماق الفضب والحقد فانه يقنعنا بانسانية هذه الانفعالات غير
الانسانية . انه يجسم لنا غضبا انسانيا وحقدا انسانيا ، لانه يجسم
لنا الفضب والحقد من أجل الانسان .. وهذا ما يفعله (معنى الدم)
محمود درويش .. وهو يستلهم من جرح النكبة الفائر في مذبحه
كفرقاسم الحقد والقوة والصمود .. يستلهم منه الخلاص ..
كفرقاسم

انني عدت من الموت لاحيا ! لاغني

فدعيني استعر صوتي من جرح توهج

وأعيني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج

انني مندوب جرح لا يساوم

علمتني ضربة الجلاذ ، أن أمشي على جرحي

وأمشي ... ثم أمشي .. واقاوم (٦٧)

هكذا يوجج الشاعر في النفوس حقدا ثوريا وغضبا ثوريا ..
بصرخ طالبا المقاومة فهي وحدها طريق الخلاص من هذه العذابات ..
فهاتوا الهراوات .. هاتوا المشاعل
والقوا المسابح للنار
القوا غبار القرون
وقوموا تقاتل !! (٦٨)

(٦٥) من قصيدة محمود درويش « وعود من العاصفة » نشرت
في ديوانه (آخر الليل) .

(٦٦) من قصيدة محمود درويش « عيون الموتى على الابواب »
في ديوانه (آخر الليل) .

(٦٧) من قصيدة محمود درويش « معنى الدم » من ديوان
(آخر الليل) .

(٦٨) من قصيدة سميح القاسم « اصوات مسن حق بعيدة »
نشرت في مجلة « الكواكب » في ١٧ سبتمبر ١٩٦٨ .

فالقناتل وحده هو الذي يستطيع ان يصنع غد القضية الفلسطينية
وان يشيد صرح مستقبلها .. قناتل لا يخاف ولا يجبن ولا يتوقف ..
لا تضعفه ضراوة العدو ولا تفل عضده . بل ان مقاومة العدو له لا تزيده
الا اشتعالا لانها تعلم الفلسطيني انه يسير على الدرب المؤدي الى
الصباح ، وهو يعرف من قبل ان الدرب طويل وشاق وانه لا بد في
نهاية المطاف منتصر ، ما عليه الا ان يواصل المقاومة برغم الصنف
والاضطهاد والحصارية في القوت والرزق .. ان صموده ومواصلته
الكبيرة للمقاومة هي وحدها التي ستعيد فلسطين ، ومن ثم فانه بصرخ
بضرورة استمرار هذه المقاومة واشغال جنودها الملتهبة ..

ربما أفقد ما شئت معاشي

ربما أعرض للبيع ثيابي .. و فراشي

ربما أعمل .. حجارا ، وعنالا ، وكناس شوارع

ربما أخدم .. في سود المصانع

ربما أبحث في روث المواشي - عن حبوب

ربما أخدم .. عربانا .. وجائع

يا عدو الشمس .. لكن .. لن أساوم

والى آخر نبض في عروقي .. ساقاوم ! (٦٩)

هكذا لا بد من المقاومة والصمود مهما كانت فداحة الثمن .. فهذا
الطريق وحده هو طريق الخلاص ، بعدما وقعت كل الارض الفلسطينية
في الاسر ، وبعدما انزاحت عن عيني الفلسطيني جميع الفسافات
والاقنعة .

(١٠) شعر المقاومة .. وقضايا الشكل الفني

بقيت في النهاية كلمات قليلة عن قضايا التعبير الفني في شعر

(٦٩) من قصيدة سميح القاسم « في سوق البطالة » من ديوانه

(دمي على كفي) .

الى الباحثين ، الى الاساتذة ، الى طلاب
الجامعات ، الى المثقفين ، المتبعين تطوور الحضارات
منذ خمسة آلاف سنة قبل المسيح حتى ايامنا ...
تقدم موسوعة :

تاريخ الحضارات العام

ثمرة مجهود ضخم قام به عشرات من الاساتذة
الفرنسيين في ارقى معاهد وكليات جامعات باريس
وفرنسا .
صدر منها حتى الان ستة مجلدات في الطبعة
العربية :

ل . ل .

١ - الشرق واليونان القديمة

٢ - روما وامبراطوريتها

٣ - القرون الوسطى

٤ - القرن السادس عشر والسابع عشر

٥ - القرن الثامن عشر

٦ - القرن التاسع عشر

٧ - العهد المعاصر (تحت الطبع

موسوعة لم يسبق لها مثيل في المكتبة العربية

مشورات عويدات

ص. ب ٦٢٨ - تلفون ٢٤٢٦٦٠

بناية للمازارية - مدخل A 5 - الطابق الرابع

بيروت - لبنان

ماذا نقول للصغار؟!

ماذا نقول للصغار عندما
تنفجر القنابل ؟
وتسقط المنازل ؟
حين تهب النار !!
ويزحف الدمار ؟

وتشيري عينان تسألان
عن سبب الدخان . . عن مسبب الدخان
والسر في سكوتنا
والسر في ارتعاشنا .
نجيب ما نجيب ؟!
وليس في وجوهنا الا أسى عصيب .

ويجمد الكلام في شفاهنا
الحرب . . هل نحكي لهم عن « بعبع » مخيف ،
عن مارد عنيف
يعبث بالناس وبالاوهواء
يعثر الاجساد والدماء .

أواه يا صفارنا
لو اننا نستطيع
أن نجمد الأشرار كالصقيع
نهذب البشر ،
ونخنق الكدر ،
أواه لو نقدر أن
نغير الأيام
نبعدكم عن العذاب والشقاء والخطر
وننشر السلام في
الافتدة الصفار
في أعين من ذعرها تطير ،
لو كان في قدرتنا أن نجعل الحروب
حكاية تعجبكم
أو لعبة تمتعكم ،
لو اننا نستطيع
نبعدكم الى دنى ، آمنة فيحاء
كثيرة الحنان والعطاء
لو ان في امكاننا
نزرع في دروبكم
الحب والسلام والصفاء .

مي علوش

المقاومة ، خاصة وقد كثر اللفظ من المدعين ، وذوي الياقات المنشأة حول ضعف هذا الشعر الفني ، غير اني ارى عكس ذلك تماما ، ارى ان تفجر هذا الشعر بكل هذه القضايا الكبيرة هو الذي يمنحه شكله الخاص الفريد . كما ان الظروف القاسية التي يكتب فيها تحت سطوة التهديد والمصادرة هي التي تمنحه أسلوبه الخاص ذلك . فهو شعر يكتب في الهروب والتشريد والتهديد والمقاومة ، ومن ثم فأنه يخمل سمات كل هذه الظروف . . يضطر الى أن يكون قصيرا وحادا كالشظايا . مراوفا كجندي حرب العصابات مقتحما مثله . وهو شعر مكتوب في السجن وفي زنانات التوقيف وحجرات الاقامة الجبرية المحددة . . انها قصائد تحفر على الحوائط ، ومن ثم فهي قصائد صارخة احيانا زاعقة احيانا ، واضحة كيوم مشمس في معظم الاحيان . فشاعر الارض المحتلة لا يعرف رفاهية البناء الرمزي ولا يتخبط في متاهات الفموض ، انه يعرف هدفه ويعرف قارئه ، ويعرف عدوه بوضوح ساطع شديد . يعرف لفته وطريقته وجمهوره . .

لغتي صوت خريف الماء في نهر الزوابع
ومرايا الشمس والحنطة في ساحات حروب
ربما اخطأت في التعبير احيانا
ولكن كنت - لا اخجل - راع
عندما استبدلت بالقاموس قلبي (٧٠)

انه يعرف لفته ودوره وجمهوره . لذلك يترك الشعر ينبت تلقائيا من القلب ليصيب القلب مباشرة . لذلك فانه يضطر ازاء عنفا الظروف التي يعيشها الشاعر في الارض المحتلة ، الى التعبير عن بعض تجاربه دون أن تكمل أو تنفج ، ليس نقصا في الخبرة ولا عجزا عن الفهم العميق لطبيعة التجربة ، ولكن رغبة في تليسة الحاجة الملحة الى الافضاء الذي لا يستطيع ان ينتظر حتى تنتسم التجربة رياح الخصب والامتثال . . وهو لهذا لا يتورع عن أن يستخدم بعض الكلمات العامة عندما يجد انها اقدر من الالفاظ الفصحى المذولة امامه على التعبير . . يستخدمها دون أن يتعب نفسه في البحث عن معادلات فصيحة لها قد تكون غائبة عن متناول يده في تلك اللحظة . فليس لديه الوقت الكافي لتتقيق الاشياء . وهو لهذا أيضا يستعمل أكثر من بحر عروضي واحد في بنائه الموسيقي للقصيد الواحدة . . ولا يهمه كثيرا أن تتقارب نغمات البحور العروضية ولا أن تخدش صلابتها الاذن ، فالاذان التي تسمعه والتي يكتب مسن أجلاها قد اعتادت كل يوم سماع اصوات الانفجارات والطلقات الفادرة . ومن ثم لن تستنكف الانصات الى بعض النغمات المتباينة .

لكنه برغم كل هذا شعر نفاذ وشديد الشفافية ، يخترق القلب مباشرة بيناته البسيط الساحر الرائع ، وبابتعاده عن الاغراق في الرمز والظلمية ، وبأسلوبه التعبيري الفريد الذي لا يوقفه أبدا في برائن الشعر الحماسي برغم ارتفاع نبرته احيانا وتوهج تجربته دائما . انه برغم هذا الارتفاع في النبرة والتوهج في التجربة يترك المجال دائما امام فعالية القارئ للمشاركة في القصيدة من خلال اعتماده على الايماءات الحادة والموجية والفنية بالدلالات . وبسبب اهتمامه بالتركيز على الموروث الشعبي واقتساربه الدائم من مكونات الرؤية الشعبية ، ولجونه الى توصيل أكبر قدر من المعاني والابحاث . . وربما لكل هذا فانه يعتمد كثيرا في بناء تجربته على الشكل الجديد الذي يعتمد على وحدة التفعيلة بدلا من وحدة البيت ، لانه شعر عن الحرية وينشد في الشكل التحرر .

صبري حافظ

القاهرة

(٧٠) من قصيدة محمود درويش « يوميات جرح فلسطيني »

نشرت في « الاداب » يوليو ١٩٦٨ .